ليلتان بعد الألف

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب: ليلتان بعد الألف
التأليف: عوني عبد الصادق
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 176 صفحة
عدد الملازم: 11 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 000 - 0

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

ليلتان بعْد الألف

الكاتب

عوني عبد الصادق

دار البشير للثقافة والعلوم

(١)

عشرونَ عامًا من العزلة [1]

-١-

خضر بنُ ماءِ السماء

يطلّ من عينيها نفسُ البريق القديم، والذي كان فيما مضى يحاصرني، يغلق أبواب ونوافذ الهروب، وأنا أسبح مثل سحابة بيضاء، أتحدّاها، ولا أركن ظهري للجدار. ولا أرفع رايةً بيضاء، أنا الكائن الاستثنائي الذي توقّف نموّه. وتمكّن مِن تحدّي الزمن، وأوقف الإحساسَ به عند بقعة الماس المرصّع بالدهشة واكتشاف الحياة.

أنا الذي لم يكنْ في مقدوره أن يمتدّ خطوة واحدة إلى الأمام، ثمّ خطوتين إلى الوراء، وثالثة نحو اليمين. ورابعة نحو اليسار، والخامسة والسادسة، عشرون عامًا وأنا أدورُ في حلقة مُفرَغة، وصوتُ أبي الشيخ ماء السماء الجَهْوري يأتي، يحاصرني، ويمتدّ باتساعه رحيبًا مثل واحةٍ خضراء. كان يتحدّث عن أبي ذرّ الغفاري الذي سار وحيدًا، ومات وحيدًا، ويُبعث وحيدًا. وها أنا أسير وحيدًا، ويملؤني يقينٌ صادق بأنني سأموت وحيدًا، وها أنا أسير عبْر فوّهة تفضي إلى مجهول.

(١) من وحي رواية «مائة عام من العزلة» للكاتب الكبير جابريل جارثيا ماركيز.

عشرون عامًا وأنا هنا، أدوس الأرضَ التي جئتها وهي مُثقلةٌ بالخير، وعبْر ربوعها تنسابُ أنهار اللّبن والعسل واللّذّة الدائمة.

واليومَ، نشبت عليها الفتنة، حوّلتها إلى جهنم الحمراء، ومع كلّ خطوة تنفجرُ ينابيعُ النار، مُخلّفة جثثًا وأشلاء لا حصرَ لها.

اليومَ، تقترب منّي بنظرتها، بنفس البريق القديم. والذي تحوّل إلى وميضٍ مبلّلٍ بالحنان الغامر:

- خضر، لم يعدْ لنا مكانٌ هنا.

ألوذُ بالصّمت، وتنشغل هي بإخراجِ خطابها الأخير الذي أرسلته إلى إخوتي، وهي تسترسلُ حديثها:

- خضر، لم أعدْ أحتمل العيشَ هنا، لم أعدْ.. لم أعد.

ويتهدّج صوتُها بالبكاء، وهي تتشبّث بي:

- عليهم أنْ يرسلوا شهادةَ ميلادك والهويّةَ لتثبت أنك مصريّ، ونسافر إلى بلدك.

ضممْتها، وربَتّ عليها في حنان....»

-٢-

روميساءُ الأمين

..، ضمّها إلى صدره، ورائحةُ الاحتياج تندفعُ في نهر اللّيل لتغمرهما معًا. روميساء التي فقدت كلّ شيء؛ الأمّ والأب والأخ. حملت أشلاءهم في حجرها وانْدفعت، تدفعها حَمَمُ بركانِ الغضب، والدّماء تنسلّ من ثنيّات ثوبها. كان يتبعُها. توقّفت وألسنةُ النار تتراقص مثل الأشباح على خرائب المدينة، أطلّ على وميض نظرتها، والأمطارُ والدموعُ ونحيبُها يتواصل...

قالت له آمرةً: احفرْ هنا.

انهالَ بمعْوله، وبدأ يزيحُ الرمال، اتسعتِ الحفرة وازدادَ عمقها، قبضت على كتفِه فتوقّف، وبدأت مراسمُ الدّفن.

روميساءُ ابنةُ سعيد الأمين، والذي كان لا يناديها إلّا بروميّة، ومع الغزو الأمريكي لبلاده كرهَ الاسمَ الذي يذكّره بالغرب الشّره، مصّاص الدماء، كانت هي التي أعلنتْ تمرّدها، وأصدرت قرارها للجميع؛ أنا اسمي روميساء، ويخرج أخوها حميدُ عنْ ترفّعه، ويحكي حكاياته التي لا أوّل لها ولا آخر، روميساء اسم أمّ مالك بن أنس، هل تعرفون؟

حميد الذي كان يكتب شعرًا حداثيًّا؛ عن الغيوم الصامتة، والصدور العارية. بعد الغزو الأمريكي لبلاده، كرِهَ الحداثة، لفظُ الحداثة الذي كان يذكّره بسياق حضاري تجسّد أمامه في لحظة غزوٍ رآها تقتحم ذاتَه، انقضّت عليه كالصاعقة، وتساءل في مرارة: لماذا؟..

لماذا يا أيها السيد المستبدّ تبيحُ الحياة، وتقصف ضوء الشموع؟!

لماذا تعربدُ في القلب مثل اللّصوص، وتغتال شمس الأصيل!؟

لماذا تجيء الغيوم تشوّه وجهَ النهار النبيل، وأنت البعيد، تبيدُ الحضارة وتقصف شعر النخيل، لماذا؟!!

الحداثةُ التي ذكّرته بنيتشه فيلسوفِه المفضّل، ها هو يكتشف أنّ المعنى الحقيقي لها هو القتل، القتل الذي يراه كلّ يوم منزلقًا في شوارع المدينة ومُنعطفاتها، يقول لأخويه؛ «حكيم» ونافذ:

- الفلسفة أكذوبةُ بن الـ...، لقد خدعني، لا.. لا، أنا خدعت نفسي وصدّقت أكاذيبه التي ادّعى أنها تحملُ في رحمها بذرةَ الحقيقة، أيّ حقيقة هذه الملوّثة بالأكاذيب، آه يا بن الـ...

كانت أولُ كوارث الغزو اختفاءَ حميد؛ خرج ولم يعدْ، وبعدها بأيامٍ قتلت الأمّ وهي تجلس في غرفة الدّيوانية، اقتحم جنودُ المارينز من الباب الرّئيسي، وأفرغوا فيها كمًّا هائلًا من الرصاص، تصوّرهم خضر؛ بل رآهم وهُم

يقَهْقهون في ساديّة مَقيتة، قال لها وهو يشعرُ بالعجز الكامل مثل الأنظمة الخَرِبة: لماذا قتلوا أمّ حكيم؟! السؤال الاستنكاري الذي أطلقه خضر، أشعلَ النيران في قلبها. وأوصدت صرخةً مُلتاعة:

– لِمَ كلّ هذه البشاعة؟!

كانت في غرفتها جالسةً إلى «اللاب توب» تكتب رسالةً على «النّت» إلى أختها «روح» المتزوّجة من أمريكي، والمقيمة في ولاية تكساس....

«اليومَ، عيناي مليئتان بالدموع.. أحاول أنْ أستعيد توازني، أقفُ على قدمين، وأنظرُ إلى العالم لأسجّل شهادتي، أسجّل كمَّ الجرائم والحماقات وسوء الحظّ الذي يلازم الجنسَ البشري، وأصرخ: أيها الحزن، أيّها الجنون، لماذا أتيتَ؟ لماذا تسرّبت إلى بلادنا مثل المرض اللّعين.. مثل الشيطان الأكبر. جئتَ لتنفثَ السّموم في قلوبنا، وتقصف رؤوسنا...،».

..، اليومَ قتلت أمّي.. لفظتْ أنفاسَها، والحزن، لن أصفَ لك الحزن، فالحزن لا يوصَف، أستطيع– فقط– أن أقول إنّه يطوّقني، يقبض على ضلوعي. لقد رحل الجميع، وجلستُ أمامَ قبرها وانسابت دموعي، شعرتُ بها ترفرف مثل فراشاتٍ ناعمة، روح أمّي شهيدة؛ والدليل إحساسُ السكينة الذي يغمرني، وينساب في دمي، وأحسّ يدَ الله تدثّرني ويشْملني حنانٌ جارف، وتعانق روحي روحَها، وأغمض عيني فأراهما معًا مثل سحابةٍ طافية على وجه السماء.

التفتُّ إلى خضر بن ماء السماء، كان يتّكئ على حافة القبر، ومظهرُه البائس.. رغم قوامِه السامق ومِنْكبيه العريضين، وهو يطلق نحوي نظرةَ حبّ، الحبّ الذي رفضته مشاعري في البداية. خضر الذي تشابكت خيوطُ مصيره مع مصيري، جاء إلى البيت. وقف أمام الباب الخارجي لغرفة الدّيوانية. ولم يدخل إلّا بعد إلحاحٍ من أبي، لاحظت وأنا أرقبه من ضلفة البابِ الداخلي خجلَه وارتباكَه، وبعد ساعة ضمّتنا المائدة، ونحن نتناول الغداء.. همستُ لأمّي:

- يبدو أنه متخلّف.

سأله أخي «حكيم» عن اسمه؛ فأجاب:

- خضر بن ماء السماء.

الاسم، الفريد من نوعه، نطقَه بلغة عربية فصيحة، فأشاع ابتسامةً على الوجوه؛ فازداد خجلُه ونكّس رأسه»

«اليومَ بركةُ ماءٍ آسن تعترض طريقي، طريقي الذي لم يمتدّ خطوة واحدة إلى الأمام..،».

كانت بركة ماءٍ بها بقايا جثث آدميّة، ضغطَ على فرامل السيارة.. وهبط. كان قد التفت مع بعض الصّبية ذباب أخضر، نشرَ طنينُه رائحةَ الموت، والصّبية يُمْعنون النظرَ في الأشلاء، وبقايا وجهٍ فاغر الفم يعلوه شارب

كثّ وأسنانٌ تتحرّك حولها ديدانٌ سوداء، والأمعاء التي كانت تتحرّك من هوْل المنظر والرائحة، أسكنتها الرهبة..، كنت في طريق العودة إلى مطعم الأمين، وشرعت في حمل الأشلاءِ إلى صندوق السيارة.. وأنا أرتّل آيّ الذكر الحكيم..

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ .. ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ....﴾

حاول الحاج سعيد إثنائي عن هذه العادة. ولكنّني واظبتُ على حمل الجثث والأشلاءِ في السيارة، والذهاب إلى الصحراء، كنت أسير على غير هدًى مُبتعدًا عنْ خرائب المدينة. وأبدأ في حفر المقبرة، أواصل الحفر والترتيل.. ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾، وعندما تتّسع المقبرة، ويزدادُ عمقها. أبدأ في تسوية القاع، ثمّ أتناول الأشلاء. وللحظةٍ تنتابُني رعشة، وعيناي تمتلئان بالدموع. أسدلُ التراب، ثمّ أتوضّأ وأصلّي، بعدها أسير حزينًا.

من قديم الزمان وأنا أسير حزينًا، تنهمر على قلبي أوجاعٌ بلا حدود، ويقتحمني الحزنُ مثلَ بحر مالح، يواصل الحاج سعيد اعتراضَه:

– يا خضر، لا تعرّض نفسَك للتّهلكة.

يمتلئ فمي بضحكةٍ مُرّة، ضحكة مَسكونة بالبكاء.. تهْلكة؟! أغلق الأبوابَ ستأتيك التّهلكة؛ مِن فوقكم، ومن تحت أرجلكم.. ستنقضّ

عليكم يا سيدي. القتل هنا بالمجّان؛ وأنت في الطريق، وأنت في بيتك، وعلى سريرك..

تقتربُ منّي «روميساء»، ينساب صوتُها راجيًا كغلالةٍ من حرير، وعبيرها ينفذُ إلى قلبي فيشفيه مِن ظمأ الحزن، وأصابعها تربت على كتفي، وتقول:

- لم يعدْ لنا أحدٌ سواك، أبي خائف عليك، وأنا.. أنا، أنــ..

صدى كلمة «أنا» يشملُني، يغمرني بماءٍ عذب، ويشدّني من الظلام إلى النور.. يضمّخ براعم حياةٍ جديدة آتية، لا ريب..

روميساء، تزوجينني.. ترتجف دموعُها.. تسقط عيناها، وكأنهما يشيران إلى ملابسِ الحداد التي لا تغيّرها، بعد استشهاد أمّها ولحِقَ بها أخوتُها الذّكور بعد عامٍ من الغزو.

جاء الخبرُ بعدَ أسبوعٍ من الوفاة، وفي هذه المرّة الحزنُ الذي طوّقها قبضَ على عنقها، شقّت الجيوبَ، وأهالت ترابَ الأرض على رأسها، وفي الطريق إلى المستشفى، ظلّ أبوها صامتًا، شفتاه مَذمومتان، وعيناه تسبحان عبر فراغٍ لانهائيّ. وكأنه رحلَ عبْر ملكوت آخرَ يسبلُ عليه هدوءًا.

قلتُ لروميساء: لا أحبّ البكاء!!

أشار لي بأصابعه، وكأنّه يقول: دعْها..

في المستشفى، اصطحبنا صبيّ كان على ما يبدو في سني دراسة الطبّ الأولى. ومع تواصل القصفِ الجوي، وتوقف الحياة.. أصيبت المدينةُ بالسّكتة القلبية. سرْنا إلى جواره عبْر طرقات تعبرها محفّات عليها جرحى وقتلى، وتأوّهات، وصراخ أطفال بعضهم مَبْقورو البطون. وهي تتلفّت مَذعورة. ضمَمْنها؛ فشعرت بجسدِها ينتفض من الخوف. والطبيبُ يُبدي شجاعةً مُفتعلة، ويتحدّث بلهجة غاضبة آمرة: لماذا جاءت؟!

وصلنا إلى الثلاجة، وراجع الطبيبُ الأرقامَ المدوّنة، وأخرج جثةَ حكيم، وما إنْ رآها الأبُ حتى وقع مغشيًّا عليه، وصدرت من ابْنته صرخةٌ مُلتاعة، أبي...

-٣-

حكيمٌ الأمين

حكيم.. كان على عكس شقيقيْه؛ نافذ، وحميد «الشاعر الحَداثي». كان يقابل الحياةَ بابتسامةٍ كبيرة، الحياةُ التي سحبت منه بعدّة طعنات في الصدر والرقبة. ورصاصتين اخترقتا الرأسَ الذي لم يجرّب يومًا الانْحناء، وجدت جثتُه على شاطئ نهر دجلة. النهر الذي عبثتِ الفوضى في مجْراه، لوّثت ماءه باستراتيجيّات وتكنيكيات عَبثيّة. وحوّلته إلى خطٍّ فاصل بين الشيعة والسنة، بين الرّصافة والكرْخ. أخوه حميد الذي رفض استعمالَ مصطلح العنف بديلاً عن القتل، متّهماً شقيقه نافذ، بل وكلَّ مَن قام بترجمته- المصطلح- بالعمالة. وبأنّه عضو في الطابور الخامس.

ذكَرَ في آخر قصيدةٍ كتبها أنّ كتيبة من «الكاوبويز» وهي تتخلّص من التثاؤب؛ جرّبت أسلحتها، وقتلتِ الحسين بن علي.. والجيوشُ الصديقة كانت تجلس القرفصاء، تقضي حاجتَها في الخلاء.

قال الطبيبُ مُسترسلًا حكايته:

- اجتزتُ حيَّ الكاظمية الشيعي، وركبني العصبي وأنا أعبرُ حيّ الأعظميّة السنّي. البلد أصبحَ لا يُطاق.

انضمّ «حكيم» إلى جماعاتِ المقاومة، وتلقّى تدريبًا سريعًا، وجاء لوداع أسرته، فحاول أبوه منعَه، صفعَه على وجهه؛ فقبضَ «حكيم» على اليد وقبّلها، وهو يقول راجيًا: ادعُ لي يا أبي، وسامحني.

وهو يمضي نحو الباب تعلّقت به روميساء، قبضتْ على سرواله وهي تبكي: حكيم، أخي لا تذهب، حكيييم...

في اليوم السابق، اقتحم المطعمَ وعانقني في حرارة..

قدّم خضر له الأرزَ واللّحم، وجلس قُبالته.. استمع إلى حديثه وهو يلتهمُ الطعامَ في سرعة، واختلطتْ كلماته بحبّات الأرز وقطع اللّحم..

- خضر، مَن لم يجاهد فهو خائن.. كافر، ومَن مات ولم تحدّثه نفسُه بالجهاد؛ فليتبوّأ مقعده من النار.

كان يستمعُ بذهنٍ شارد، دائمًا يذهب بعيدًا، وتنساب الصّور على ذهنه، ينبثق اللاوعي مثل وردةٍ حمراء، وتنظر إليه «روميساء» بنفس البريق القديم، والذي تحوّل إلى وميضٍ مبلّلٍ بالحنان الغامر وهي تبحث في تجاويف رأسه، هي التي كان لها إلمامٌ بمناهج التحليل النفسي، ووضعت «خضرًا» موضوعًا لدراستها..

قال «حكيم» معلّقًا: الموضوع دسم.

اعترض حميد: كلامٌ فارغ، حالةُ خضر قُتلت بحثًا.

أومأت برأسها نحو «نافذ»، وسألته رأيَه فقال:

- المهمّ أن تَصِلي إلى نتائج جديدة.

جازفت مشاعرها، وبادرةٌ صغيرة تنبتُ في القلب، لم تفصح بعدُ عنْ نوع زهرتها، فخضر به خللٌ ما، فسّرتْه وهُما على مائدة الغداء منذ سنواتٍ بالتخلّف العقلي. واليوم.. «اليوم يخفق القلب بوجيب لذيذ.. ماذا تعرفون عنِ الحبّ؟ تناديني أمّي- أمّ حكيم- أمّي ذات الوجه الضاحك كقمر، فأسير عبْر بهوِ البيت نحوها، تسألني وهي تتفحّصني بعيْنين مَلْهوفتين، وكأنّ رائحةَ خمر نفّاذة أثارت قلقها:

- جلوسك مع المصري تعدّى الحدود.

- أريد أنْ أنهي الدراسة يا أمّي.

النظرةُ التي تلقيها على وجهي تكذّبني، ولكنني أصرّ على موقفي وأكذب تكذيبها، وأنا أكتمُ صهيلَ الرّغبة الذي يفتّت أعضائي. وتأخذني صورةٌ مجازية.. أراني في إحداها على صهوةِ جوادٍ أصيل ينطلق بي على جسرِ نهر دجلة، وعبْر صفحة الماء، وأنوارِ المصابيح وهي تنثر زهورَها الصغيرة الملوّنة على صفحته، يطلّ «خضر» بوجْهه الأملس المَصْقول، وجْه من المرْمر مثل

بطلٍ روماني، اصطحبتُه وسِرْنا على الجسر.. وبصحبتي الصورةُ المجازية والجوادُ والصهيلُ وصفحةُ الماء والبطلُ الروماني..

هذا الجسرُ لم أرَه منذ شهور، كان يسير إلى جواري.. بوجهه الطافح بالامْتنان لتوددي إليه. قال لي وهو يرمقني في حنان:

- «روميسة، أنا بحبّك».

جاءَ إقراره، ووضَعَ حقيقةَ مشاعر ظَلَلْت أنْكرها لنفسي، نعم.. «خضر» يحبّني وأنا..، مشاعري مُرتبكة، الارتباك الذي اختلج كياني، لم يخفِ حالة الفرح التي غمرت قلبي، حاولتُ أن أنظر إليه باستعلاء.. أن أبعدَه عن الخطّ الأحمر، فأنا الأستاذة وهو التلميذ، ولكنّ صهيلَ الفرحة كان عارمًا.

قلتُ له: أنا لم أعرفك بعْد. ولم أعتدْ على حبّ المجهول.

التفتَ إلى النهر، وقال في هدوء وثقة:

- «أنت تعرفينني، وأنا لا أتعجّل؛ فكلّ شيء في أوانه».

قلتُ في لهفة: أريد أن أنتهي من الماجستير.

فوجئتُ به يقاطعني، ويشملني بعيْنين تشعّان بالحنان:

- «روميسة، أنا لست متخلّفًا، أنا عاقل جدًّا».

حاولتُ مقاطعتَه بالاعتذار، ولكنه واصل حديثه:

- «صدّقيني، أنا لي نظرةٌ في الحياة، في العلم والسياسة، وفي الجغرافيا والتاريخ..،».

صدرتْ عنّي ضحكةٌ عالية، فقال معاتبًا:

- «عندك حقّ، أنا في قلبي غابةٌ من الكلام، ولكن..».

- ولكنْ ماذا؟! تكلّم..

«........،

وحكيم يواصلُ حديثَه عن الجهاد، وكلمات الخيانة والعمالة والكفر تبعثرتْ مثل حبّات الأرز على المائدة، إصرارُه أعادني من شرودي، وشيئًا فشيئًا تسرّبت كلماتُه إلى بؤرة لامعةٍ في العقل...

«، يقول العملاء إنّكم تخلطون السياسة بالدين، لعنَ الله السياسة وصدّام وأمريكا وبوش وكلّ العرب، نحن نضحّي بأرواحنا من أجْل الأرض والعرض، وسيمنّ اللهُ علينا بالنصر إنْ عاجلًا أو آجلًا».

ثقتُه وإيمانُه الراسخ اهتزّ لهما قلبي، وتحرّكت في أجواء نفسي كلمةُ البداية، كنت أبحثُ عن الكلمة التي ستفكّ الطلسم لتنفجرَ غابة الكلام التي أتوهُ فيها، أخطو- بلا طائل- ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال. وأجدني في نهاية المطاف لم أبرحْ مكاني، والكلمة التي أبحث عنها تستقرّ في قرارٍ بعيد.

وأنا أودّع حكيم، وصوت الانفجارات تصلُ مُتفرّقة، ويتخلّلها- بينَ الحين والآخر- صوتُ طلقات، قبضتُ على يديه وأمعَنت فيه النظر، وكأنه قرأ ما يموجُ في قلبي من خواطر؛ فقال لي:

- ادعُ لي بالشهادة.

وسحب يدَه وانصرف، وعندما قُدّر لي رؤيته كان جثةً هامدة.

– ٤ –

سعيدُ الأمين

بعد موتِ زوجته وابنه، واختطاف نافذ وحميد، بدا مثل جبلٍ كسيح، سقطتْ أحجاره، وانطفأ شموخُه، ولاحت على وجههِ الكآبة، الغزوٍ الذي قلَبَ حياته. قسمَ ظهره نصفيْن وكسر روحه..

والمطعمُ الذي يفتح أبوابه في انتظار زبائنَ لا يأتون.. كان سعيدُ الأمين يجلس فيه صامتًا، يشملُه الذّهول لساعات، ويتحدّث إليه «خضر» ليخرجه من الحزنِ الذي يغرقُ فيه، وهو يواصل الكلامَ وكأنّه يبحث عن الكلمة التي ستفكّ الطّلسم، وتفتح نافورةَ الكلام الذي يموج في كيانه، يضجّ المكانُ بكلماتٍ لا تنتهي.. لكن دون فائدة.

ينتبهُ إلى صوتٍ يأتي في البداية هذيانًا وغمغمات، وينصتُ «خضر»، يلتقط الكلماتِ وينتظر حتى يستقيم المعنى.

ولدت- هكذا يقول الحاج سعيد: قبل اغتيال الفريق بكر صدقي العسكري بساعات. أخي الاكبر «سعد الأمين» كان صحفيًّا مشهورًا في الثلاثينيّات، قابل الفريق بكر قبلَ أيام من اغتياله، ورآه يصيح وهو يبدي غضبَه من الضبّاط الذين كانوا يُمضون لياليهم في لعب القمار ومعاقرة الخمر.. كانوا ينفقون الأموال التي يدفعها لهم بلا حساب، ويهملون حراسته...

وتتوارد مع عودةِ الهذيانِ الصورُ التي نشرها شقيقه الصحفي في كتاب.. وقد دبّت فيها الحياة. كان يرى العسكري حرّاسه وجلاوزته يحيطون به في داره وفي الحديقة وفوق السطح.. وفي كلّ الزوايا والممرّات.. وصورُ الصّخب والسهرات الماجنة التي يتردّد عليها، وصورةُ الغانية وهي تهزّ أعضاءها في ابتذالٍ، وهو مُنهمكٌ بمراقصتها، وعيونُ حرّاسه تحملق في وجوه الحاضرين خوفًا على الديكتاتور،

ونوبةُ بكاء تقتلع ضلوعَ الرّجل.. انتشرت رائحةُ خراء، كان لا يشعر بضرورةِ قضاء حاجته، فيحملُه «خضر» إلى الحمام، ويغيّر ثيابه،

«اليوم، كانت الرائحةُ نفّاذة..

قاومني الرجلُ وأنا أحمله إلى الحمّام، كان مثل الطفلِ المشاكس وهو يخمشُ وجهي بأظافره الحادّة، وانتهيتُ مِن تنظيفه وسط صياحه وسُبابه الذي ظلّ يمطرني به. وأنا أخرج لإحضارِ سرواله النظيف وجدتُ أمامي «نافذ».. وقد جلس إلى مائدةٍ بصحبة جنديّ أمريكي.. عرفتُ فيما بعد أنّه أحدُ الرّتب الصغيرة. وقفت للحظةٍ ثمّ اندفعت نحوه صائحًا، عانقتُه في حرارة.. كانت المفاجأةُ أشبه بلسعة الكهرباء، والتبسَ في ذهني خاطر. نعم.. فرحتي بعودة «نافذ» بعدما توقّع الجميع أنه قُتل منذ بداية الغزو الأمريكي؛ كانت فرحةً حقيقية.. فرحة من القلب..............، ولكن..

– ٥ –

نافذٌ الأمين

اختفى مع أيام الغزو الأولى، كان يرى أنّ الأمريكان يصنعون تاريخهم من الأساطير، أساطير من فراغ وافتعال ودقّة صنعة، حتى لتبدو واقعًا وحقيقةً لا تثيرُ الشكّ..

نافذ.. الذي يثير شكوكي رغمَ ابتسامته الودودة، انضمّ إلى حزب البعث، ودأبَ على رفع شعاراته، وفي وقتٍ قياسيّ احتلّ موقعًا قياديًّا جعله يحتاطُ في تصرّفاته، وساعدته فضيلةُ الصمت، وقليلًا ما كان يكسرُ هذه القاعدة، ويفرغ ما في عقله..

، هل تعرفون ما يقدّمه الأمريكان للعالم من مخلوقاتٍ خارقة وقبائل السوبرمان، الأبطال والجنرالاتُ هُم في الأساس حفنةٌ من اللّصوص والمحتالين والقوّادين.

والوحيدة التي كان يسترسلُ معها، روميساء، وهُما يجلسان في تراس غرفتها، كنت أحملُ لهما الشاي، وسمعته يقول:

– مِن الآن تروج الميديا الأمريكية لمصطلح الفوضى الخلّاقة.

ويفردُ جريدةً عالمية أمامَها، ويواصل حديثه:

- هذا المصطلح اتّفق على أن يكون عنوانَ القرن الـ ٢١، بدأ بـ«الفيزا كارد»، بدأ بالاقتصاد، وسينتهي بضربة قاضية....

أتذكّره في الأسبوع الأول من مارس ٢٠٠٣، كان لا يستقرّ به المقام، غابَ عن البيت تمامًا، وفي زيارته الأخيرة لمحته وهو يتحدّث عبر الموبايل باللّغة الإنجليزية. لحظتَها، كان الظلامُ والصمت وكلماتُه التي لم أفهمها؛ تثيرُ الريبة. نعم.. منذ البداية لم أطمئنّ له، وبالفعل شعر بشكوكي، وحاول مرارًا التودّد لي دونَ جدوى، كانت رائحةُ الشكّ تصله فيبتعد..

وأنا أتحسّسه بين ذراعي، انطلقت شرارةٌ أضاءت ظلامَ الصمت، وخرج السؤالُ واضحًا جليًّا، هل كان «نافذ» عميلًا!؟ هل كان التحاقُه بحزبِ البعث وترقيتُه ليكون أحدَ كوادره الأولى؛ خطّةً. ساعدته أصابعُ خفيّة على الاقتراب من أسرار الدولة والوقوفِ على نوايا صدّام حسين الزعيم القائد المَهيب الرّكن. هل «نافذ» رقمٌ ضالع في لُعبة مخابراتية أشرفَ عليها عرّاب خفيّ- جاسوس كبير- تلاعب بالجميع وتمكّن من زراعة طابور خامس، وأعدّه للّحظةِ المناسبة، لحظة الغزو؟!!

انتشلني من شرودي صوتُ سعيد الأمين، وهو يصيح لاعنًا:

- الجوّ برد يا بن الكلب..

خرج الرجل عاريًا، و»نافذ» يستر خجلَه بابتسامةٍ لا تعني شيئًا، وقد رشقني الجندي الأمريكي بنظرةٍ من عينين رماديتيْن تضفي على المشهد إيحاءاتٍ مقزّزة.

أسرعتُ بجذب مفرشِ المائدة، وسترتُ عورةَ الرجل رغم مقاومته..

قال نافذ: ماذا يحدث هنا؟

قلت له:

- أبوك مريض، بعد استشهاد أمّ حكيم، وحكيم، واختفاء حميد؛ كانت الصدمةُ فوق احتماله، وأنا أساعدُ الرجل على ارتداءِ ملابسه.

طاردتني نظرةُ الجندي المقزّزة، تجاهلت عينيْه الرماديتين، والتفتّ إلى «نافذ»، إلى حزنه وهو ينسجُ حوله شرنقةً محكمة، كنت أشعر به- الحزن- وقد بدأ ينشبُ أظافره الحادّة في جوفه، هل شعر بالذنب لأنه خان، لأنّه مدّ يدَه إلى الأعداء، فكانت الجائزة قتلَ أمّه وأخويه؟! وها هو الأبُ تصل به الأحداث إلى مصيرٍ أسوأ من الموت..،

التفتَ نحوي، وسألني باقتضاب:

- أين روميساء؟

- في البيت.

كان الأب يتفحّص ابنَه بنظرةٍ شاحبة، وهو يقترب منه ويقودُه إلى الخارج، تبعهما الجندي الأمريكي، لحظة ووصلني موتور السيارة وهي تنطلق، وأنا أتهالك إلى مائدةٍ قريبة، انتبهتُ إلى وجود حقيبة سوداء، التقطتُها وأنا أنادي: نافذ..

وجاء الردّ انفجارًا هائلًا، ولمحت السيارةَ وقد تناثرت أشلاؤها، ونشبت فيها النيرانُ، وسحابةٌ سوداء أغلقت كلّ معالم المكان.

بعد ساعتين، أعلنت نشراتُ الأخبار نبأ مقتل جنديّ من جنود التحالف ومدنيّيْن.. وصلها الخبر، فانطفأ كلّ شيء في حياتها، غلّفها الصمت والذّهول، وانهمرتْ من عينيها الدموع بحرًا من الحزن.....». حاولتُ أن أخرجها مِن عزلتها وإحساسِ الكآبة الذي استسلمت له، حاولت أن ألجَ غابةَ الكلام، وأضرمَ شرارةَ النور لتضيء الصمت الذي يعشّش داخلي دون جدوى، وانْزويت معها في بئرٍ بلا قرار، تسلّمنا بضعة أشلاء، وأقمتُ مراسمَ الدفن، وعندما رجعت «روميساء» أوصدت بابَ غرفتها».

«دوّنت برقيةَ عزاء إلى شقيقتي «روح»..

روح، اليومَ واريت أبي وأخي نافذ التراب. روح، لم يعدْ لي في هذا العالم إلّا أنت، ساعديني، أريد أن أهربَ من هذا الجحيم، أرسلي لي فورًا دعوةً لزيارة أمريكا. روح، أنا أحدّث نفسي كثيرًا، وأدفعها نحو الانتحار، سلام.

روميساء

«لم تصلني الدعوة، ومرّت الأيام ثقيلةً لزِجَة، حاولت الاتصالَ بروح فلم تردّ، صرخت.. وشتمْتُها بأقذع الكلمات؛ أيّتها الحقيرة، أيتها العاهرة، لقد تزوجتِ من عنصريٍّ مُتعصب، وهو الذي يمنعُك من إرسال الدعوة لي، احذري لو وقعتْ عيني عليك سأقتلك..، سأقتلك...

اقتحمتني التّداعيات في عنف، وكأنها تهدمُ وتخرّب في إصرار كلَّ طرق وممرّات الخلاص، ولم يعدْ لي في بيت الأمين- بل في العراق كله- إلّا هذا الرجل، خضر بن ماءِ السماء، خضر الذي أغلق المطعمَ ومكثَ معي في البيت، وواصل الحديثَ عن موضع العراق ومكانة مصر، وأنا الذي كفرت بكلّ شيء، كنت أنظرُ إليه في صمت، اليومَ ارتدى إحدى بدلات «حكيم»، وقال:

- أنا خارج.

خرج وتركني في نوبةٍ من البكاء الهستيري والصراخ، وأنا أقذفُ بكلّ ما تلتقطه يدي، وألعنُ الجميع؛ العراق، ومصر، والعرب، وأمريكا، وصدام، وبوش، وخضر، وروح، وزوجها العنصري، والسياسة، والحياة؛ الحياة كلّها.. فكرتها نفسُها التي أريد أن أدمّرها لأستريح مِن هذا العذاب. واصلتُ البكاء والصراخ حتى أنهكني التعب، وسقطتُ في غيبوبة تامّة، ورأيت عالمًا من الأشباح، كان بينهم كلّ مَن افتقدتهم؛ أمّي وأبي وإخوتي.. كنت أستصرخُهم مُستنجدة، وقد لفّهم ضبابٌ كثيف، وترامت إليّ أصوات مُتداخلة.. ثم، ثمّ خيّم الصمت، ولفّني سكون عميق.

أفقتُ على عزفِ جيتار ينسابُ في نعومة، فتحت حقيبةَ الجندي الأمريكي السوداء، وأخرجتُ الموبايل وتردّدت في الردّ. والعزفُ يتواصل في إصرار..

فتحت الجهاز، وردَدْت بحروفٍ مَشروخة، جافّة باهتة: أأألووووه. كرّرت الكلمةَ وقد التصقتِ الحروف بلساني: ألوه..

ردّت سيدة:

- أرجوك، أريد هنري جو...

- ....

- ....

بعد ساعة، رجع «خضر» بصحبةِ ثلاثةِ رجال، وقال لي:

- أحضرت مأذونًا واثنين شهود.

(٢)

«الصخبُ.. وسورة الغضب»[١]

- أ -

ماري أرنولد

أمّي..

لا تحدّثيني عن الشمس؛ فأنا لا أعرفُها، ولا عنِ النّخيل فهو لا يعرفني، حدّثيني عن الحرب.. عن الرّاجمات وحاملي الطائرات، وحاملي الرؤوس النوويّة، حدّثيني عن الحرب؛ فهي التي تعرفني وأنا أعرفها.. «في الخارج، ثمّة أمطار خفيفة.. أراها من خلال دموعي التي لا تتوقّف، زجاج النافذة يتحدّث إلى الهواء والفراغ. محدثًا ثرثرةً عارمة تنسج ثوبًا مِن الحزن في دمي..

خمسُ ساعات والطائرةُ تحلّق فوق المحيط في طريقها إلى مطار شارل ديجول. استقرّ الصمت بعيني فوقَ زجاج النافذة، وحفيفُ الهواء والفراغ يحدثُ ثرثرةً تمنع صوتَ ابني هنري من الوصول إلى قلبي، كانت صورتُه على شاشة الموبايل وهو يلقي بخواطره عنْ عاصفة الصحراء..

(١) رواية للكاتب الأمريكي وليم فولكنر.

أمّي، لا تحدّثيني عن الشمس.. ويختفي،»

عندما أصرّت ماري أرنولد على السفر إلى العراق، لم يصدّق زوجها «جو»، هزّ كتفيه وظلّ صامتًا كعادته عندما يكتنفُه الحزن، كان يلوذُ بالصمت، ويجلس وحيدًا إلى مكتبه.

– ٢ –

جو أرنولد

انقضّ عليه الخبر، فشعر بكيانِه ينزلقُ عبر نفقٍ مُظلم، واشتعلت الحرائقُ في قلبه، وصورُ القتلى المتناثرة، والتي تواصل بثّها الفضائيات دأبتْ على ملاحقته في إلحاح، هو الذي عارض الحربَ منذ البداية، وتصدّر المظاهرات المندّدة بها أمامَ البيت الأبيض، ورفع شعارَه البسيط «No war»، ورغم الظلام وحريق القلبِ حاول أنْ ينتشلَ نفسه وزوجتَه من الآلام المُبْرحة، فاصْطحبها لتناول العشاء في مَطعم إيطاليّ مفتوح كانت لهم فيه ذكريات.

وضعت أطباق البيتزا وسمك السّيمون المشوي، وسادَ الصمت، رفع الملعقةَ إلى فمِه عدّة مرات، ثمّ أعادها إلى الطبق، كان الحزنُ قد قهر النفس، وهو يقاوم في ضراوةٍ، ويواصل محاولاتِه لإقناع زوجتِه بعدم السّفر إلى العراق. كان يشعر بها وهي لم تفقْ بعدُ من الصدمة، شعر بها تصارعُ لحظة انهيارٍ خانقة تفتكُ بكيانها وتضغط على أعصابِها..

انتبه وهي تحدجُه بنظرةٍ قاسية، فهمسَ راجيًا: ماري..

قاطعته في حدّة: أنتَ السبب.

علتْهُ الدّهشة، ولكنّه سرعان ما استوعبَ اتّهامها وهي تستدرك، وكأنّ الجنون قد حاق بها:

- أنت وزهرة البامبو، أنتما السبب.

«جو» الذي عانى ويلاتِ الحرب في فيتنام عندما أرسلته جريدتُه إلى المعركة ليسجّلها بكاميرته، فالْتقط المأساة بكلّ تفاصيلها، ووسط جنون القتل أدرك مأساةَ الجنس البشري، أدرك مدى الضّحالة والكذب، حتى أنّه قال لرئيس التحرير في إحْدى برقيّاته: «لقرونٍ عديدة، والكذب يؤسّس ميثولوجيا خاصة، واليومَ أمست هي الخطاب السياسي، وهذه هي الكارثة التي ستفني الجميع».

أدرك رئيس التحرير، صاحبُ الميول العنصرية مدى سذاجةِ جو، وعقّب وهو يشاهد الصورَ التي أرسلها: «الكثيرُ من صور القتلى يزيد أرقامَ التوزيع لجريدتي، وهذا يكفيني».

كلمات رئيس التحرير أكّدت لـ«جو» الرابطةَ الوثيقة بين العنصرية والأنانية المُفرطة والكذب، وهو يجمعُ مادّة كتابه.. الرقصة الأخيرة لزهرة البامبو. كانت المقولاتُ الفكرية التي ينحتُها داخل وعيه، تكشف له تصدّع البناء الحضاري الذي كان يحاول إعادته إلى رشده، وهو يفرّ صفحاتِ رواية الجريمة والعقاب، ويتخيّل صورة رسكولينكوف [1] الذي يقتل ضحيّته بدمٍ

(١) بطلُ رواية «الجريمة والعقاب» لدستوفيسكي.

بارد.. وينجو من العقاب، تذكّر «هيجل» الذي ردّ كلّ الصراعات إلى الرغبةِ الكامنة في الاعتراف بتفوّق الجنس الأبيض.. بل وقدرته التي تعطيه الحقّ في قتل الآخر، وقتما يرى وكيفما يشاء.

اليوم ١٣ ديسمبر ٢٠٠٤م..

مرّت ألفُ ليلة، ألفُ ستارةٍ سوداء أسْدلت، منذ سفر هنري إلى العراق وأرادت ماري أن تعيدَ لابتسامتها الذابلة ماءَ الحياة، فأصرّت على الاحتفال بعيد ميلاده..

والشموعُ تنثر قطراتِ الضوء على تورتةِ عيد الميلاد، أصرّت ماري وهي تلقي ابتساماتٍ جذلًا نحو ضيوفها، على أنْ يشارك ابنها الموجود ضمنَ قوّات التحالف في العراق عبْر رسالة مصورة..

قالت له وهي تعدّ للاحتفال:

– يجب أن تكون معنا.

– إن شاء الله.

سألته مُستفسرة عمّا تعني، إن شاء الله، فقال بالإنجليزية:

– إذا أراد اللهُ سأكون معكم.

انسابتِ الموسيقى، عبّقت الأجواءَ عبْر الهول الفسيح، وتعلّقت الوجوه بشاشةِ العرض الكبيرة التي أعدّتها الأمّ لاستقبال رسالة ابنها المصوّرة.

- ٣ -

ماري أرنولد

ماري أرنولد التي بدأت راقصة على مسارح برودوي، عشقت الموسيقى، واعتبرتها إحدى مباهج الحياة، وواظبت على التمتّع بها، قالت لـ«جو» في أول لقاءٍ بينهما في كواليس المسرح: «لا أشعرُ بالسموّ الروحي إلّا وأنا أرقص، تستطيع أن تقول إنّني أسبح في غيبوبة الحبّ..» كان عائدًا لتوّه من مُستنقع فيتنام، وأراد أن يعيدَ لنفسه توازنها، فشرع في تأليف كتابِه عن الرقص..

في أواخر ستينيّات القرن العشرين، كانت فتاةٌ نِضرة، ورغم نحافتها كانت تطفحُ خطوطُ جسدِها بالأنوثة الكاملة، وتعدّدت اللقاءات، وهو لا يملّ مِن النظر إليها.. إلى الجمال الذي أعادَ إليه توازنه وانسجامه مع الحياة.. الحياة التي امْتهنتها الحرب، وحوّلتها إلى مسخ، وبعد عدّة لقاءات تآلفتْ روحان، ولفّهما السحر، وهي تؤدي إحدى رقصاتها..

كان يلاحقُها بكاميرته ليسجّل كلّ؛ حركة، انْثناءة، استكانة.. وتتهادى نظرتُه وأصابع اليدِ تحلّق، تثقبُ الفراغ فينساب النورُ ويتناثر مع عزفِ كمانٍ ناعم كالحرير، تهبط.. ترتفع.. تدور.. ثمّ، ثمّ تنساب في عذوبة، وقطراتُ النور تتناثر فتخلق عالمًا من الخيال يضمّهما معًا.

أهدى لها بروفةَ كتابه، ماري حبيبتي إلى الأبد، تضمّ الصفحات مثل فراشةٍ تسبح فوقَ زهرة، ويصرّ على تسجيل اللّحظة، وهو يتأهّب، يلقي قُبْلته نحْوها فتبتسم، وينبثقُ الضوء. صورتُها وهي تبتسم أكّد أنها قمّة إبداعاته، وأصرّ على أن تكون غلافًا لكتابه، الرقصة الأخيرة لزهرة البامبو..

قال لها:

- شجرة البامبو تتفتّح زهرتها بعدَ ٣٩ سنة، ثمّ، تذبلُ وتموت..

بدأ الاحتفالُ كما حدّد مخرجه بمشاهدِ الحبّ بين ماري وجو، وتتابعت صور هنري منذُ ولادته وحتّى مراسم التخرج من الجامعة، وقبل استقبالِ رسالته الحيّة. عرض تسجيلًا وهو يلقي قصائده، كان فوق إحدى الدّبابات، وجاء صوتُه مشحونًا بالتأثّر..

صديقي وأنا، منذُ قليل كنّا والآلية العسكرية..

تلفّتنا والخوفُ ثالثنا، سيارة سوداء..

قال لي: بداخلها إرهابي يتْبعنا، هيّا ابتعد، والآليّة ثقيلة، والسيارة تقترب، وفجأة تناثرنا مثلَ الغبار في الهواء.

الموسيقى المصاحبة للقصيدة ضمّت مشهدًا من أوّل رقصة صمّمتها ماري، تابعها الضيوف وقد مست ذكريات نائمة فأيقظتها، أيقظت مساحاتٍ صامتةً في العقل والرّوح، والجسد، فانطلق عبْر الهول الفسيح.. وراح يعزفُ

أيقونته، موسيقى الفراغ وقد شُحِنَت بتفاصيلَ من ابتكار إحساس اللّحظة أبهرت الحضور. في النهاية، أشار لها المخرج فتناولتِ الموبايل، ضغطت على الأزرار...

– أرجوك، أريد هنري جو.

وجاء الردّ، وصورةُ امرأةٍ مجهولة ظهرت على شاشة العرض، وكأنها خارجةٌ لتوّها من كهف قديم، بدتْ ككائنٍ خرافي، مشعث الشّعر، ويطلّ من العينين بريقٌ مُخيف، كانت تضمّ الموبايل وتساءلت بإنجليزية ركيكة:

– تقصدين الجندي الأمريكي؟

– نعم.

– مات..

– ....

– قُتل.

– .....

– تناثرت أشلاؤه.

***

امتلأ القلبُ بأحاسيس شتّى، فالصدمةُ التي انْقضّت على رأسها فجّرت حياتها، نسفتْ عقلَها ونثرت أفكارها، والرّوح.. لم يعدْ في الروح شيء، تلاشى كلّ شيء، وبدا وجهها الذي ملأ شاشةَ العرض غائبًا عن اللّحظة، الوجه الذي كان منذُ لحظات يصنع حضورًا طاغيًا، تجمّد فيه كلّ شيء، تأمّله «جو» وهو الذي حدّد فلسفته في الفنّ بعبارة واحدة، «الوجه الإنساني سرُّ الحياة»، وجْه ماري الذي يعرفُه تاهتْ معالمه وهو يقاوم فكرةَ الموت؛ استحالَ وجهًا آخر وهو يقاوم الانسحاق أمامَ فكرة قتل هنري. في هذه اللحظة الفاصلة بين المقاومة والانْسحاق، أيقن «جو» أنّ ابنه هنري قُتل...

استقرّ الحزن بماري عندَ ليلة ١٣ ديسمبر ٢٠٠٤، لم يبرحْ مكانه، أوصدت أبوابَ الزمن وهي تقاومُ محاولات زوجِها لمنْعها من السفر، كان يجلس قُبالتها في المطعم الإيطالي المفتوح يعبثُ في قطعةِ البيتزا، وقطع الصمتَ مُستنكرًا:

- لماذا تسافرين إلى العراق؟

كان يتأمّل وجهَها، يبحثُ عن معالمه التي يعرفها، يبحثُ عن حقيقته التي توارتْ مثل نجمةٍ بعيدة شاردة.

تحدّته قائلة: سأسافر لأرى هنري!!

ضغطَ على أسنانه في عصبيّة، وهو يقول: هنري، مات.

صرخت: كذب...، كذب!!!

– ماري، لم يعدْ لنا ابن، لم يعدْ لنا..

اختنقَ صوتُه بالدموع، وهو يستدرك راجيًا:

– لو ذهبتِ سوف تموتين، وأنا لا أريد أنْ أفقدك كما فقدتُ هنري.

قبضتْ على كفّيه في عصبيّة، وواصلت رفضَها:

– لنْ أصدّق. لو قال العالم كلّه: هنري مات؛ لن أصدّق حتى لو قالها لي هذا الرجل الذي أخذه منّي، لن أصدّق..

– ماري، أرجوك.

– سأتحدّى الجميع، إنّه ابنى يا «جو»، ابني..

– ابننا مات.

– لو قالها بوش الابن، لنْ أصدّق.

– سيقولها..

– وقتَها، سوف أسأله عن سببٍ معقول لقتل ابني في سبيله.

– لن تصمدي أمامَ النفاق، والأكاذيب التي تبرّر القتل البغيض.

ألقتْ نحو زوجها نظرةَ إصرارٍ وهي تقول:

– أرجوك، لا تنْس للحظةٍ واحدة مثلهم.. أنّني أمّ.

وحملت حقيبتها، واستدركت:

– بعدَ ساعتين، سأكونُ في المطار.

وهي تنهي إجراءات السفر كرّرت محاولةَ الاتصال برقم هنري أكثر من مرّة دونَ فائدة. استقرّت على مقعدِها في الطائرة، وأغمضتْ عينيها، ولفّها الصمت.

***

«خمسُ ساعات، والطائرة تحلّق فوق المحيط في طريقها إلى مطار شارل ديجول. استقرّ الصمت بعيني فوقَ زجاج النافذة....

تهادتِ الطائرة، ولامستِ العجلات أرضَ المطار، وللحظةٍ استقرّت أوجاع القلب، وصورة هنري تطاردني؛ صوتُه وكلماتُه، وهو يقول: «أمّي، لا تحدّثيني»، وبقايا شتاءٍ تزفر أنفاسًا باردةً على الوجوه، وسحبٌ داكنة تتهادَى على إيقاعِ موسيقى كورساكوف تنفذ إلى كياني، أتذكّر رقصة «شهر زاد» الأخيرة، وقد ملّت مِن روايتها وطلبتْ من مليكها «شهر يار» أنْ يحكم بإعدامها، ولكنّه قال: لا، لقد أحببتك.. موسيقى الحبّ المَخملي غلّفت الأجواء، ولكن اليوم ولّت، وأواصل محاولاتي في إعادتِها مِن جديد. أدرك– في النهاية– أنّ حياتي كلّها تحتاج إلى ترتيب، ابني مات، ومِن حقّي أنْ ألقي عليه نظرةً أخيرة، ومِن حقّه أن أضعَ على قبره زهرة..

توقّفت الطائرة، وفي السيارة التي استقلّها الرّكاب، استعدتُ بعضًا مِن الإحساس بالحقيقة، بالكارثة التي فرضت نفسَها، وعليّ أنْ أتعامل معها قبل أن تدفعني إلى الجنون. في الطريق لإنهاء إجراءات الخروج، كنت أجاهدُ في استماتةٍ لحماية نفسي من السقوط نحو السّفح، والفرار من هاويةِ النّفق المُظلم المُعدّ لي مثل شراكٍ لَعين، بدأت قدماي في ابتكارِ خطواتٍ جديدة، واشتعل ذهني بالبحث وسط العبث والارتباك والرّكام عنْ فكرةٍ بدتْ غائمة، موسيقى تهرب نغماتها قبل الإمساك بها، تشابك الأحداثِ جعل الحياة أمامي فارغة، وانتابني نفسُ الشعور القديم بالإجهاد، الإجهادُ الذي كان يمزّق جسدي ويكسرُ عظامي قبل الصعود إلى خشبة المسرح، متأهّبة للحظةِ مَخاض، لحظة العذاب القاسي المضني، وشيئًا فشيئًا يبدأ كلّ شيء في البزوغ؛ الموسيقى، والخطوات، ودراما الحياة.

وأنا أخطو نحوَ الموظّف الفرنسي، وكأنّ أصابعي تطأ رمالًا متحركة.. تهرب منها قبل أن يبتلعني النّفق المظلم، كنت ألجُ من لحظة المخاض.. من التجربةِ المريرة التي تضغط على عظامي، وكأنّني أبدأ الحياةَ من جديد، استقبلني بابتسامةٍ ودودة، وشعرت للحظةٍ بأنّها نفسُ ابتسامة ابني هنري. كانت مشحونةً بنفس الدفء والتأثّر الذي كان ينتابني عندما تزهر هذه الابتسامة نفسها.

سألته: ما اسمك؟

- هنري.

ندّت على وجهي، الذي تقلّص من الحزن، ابتسامةٌ.. غمغَمْت:

- هنري اسمٌ جميل.

قال الشابّ وهو يغالب دهشتَه:

- جان موريس، اسمي جان موريس.

خرجت من المطار، وأنا أستقرّ في التاكسي، كرّرت محاولة الاتصال. وفي هذه المرّة، جاء الرنينُ الذي انتظرته طويلًا، وفتح الخطّ فقلتُ في لهفة:

- ألو..

- ......، .....

(٣)

موسمُ الهجرةِ إلى الشرق [١]

- أ -

خضر بن ماءِ السماء

«ابتسامةُ الفجر الكابية تخفي سرّ الحياة، تحتضنه في عالمِ الغيب، في بقعةِ الزّمن التي تبتعدُ أمامي، تراوغني مثلَ نهرٍ من سراب، أهْرَعِ إليه وصدري تنهشُه رغبةٌ في الارتواء، في الكشف عمّا يخبّؤه القدر لي..

والشاحنة تجتازُ الظلامَ والأشباح، وحقولَ الألغام، والسياراتِ المفخّخة، حتى تبزغ لآلئ الصباح.. تصافح وجهي وتغمرني أشعّةُ النهار، فأشعرُ بانتشاءٍ لاكْتشافي أنّني مازلت على قيدِ الحياة، رغم الانفجارات التي تلاحقني، والنارُ التي تحرق الأرض، وتهلكُ الحرث والنّسل.

وروميسة- ككلّ صباح- تعدّ لي زادَ الرحلة، ولا تنسى تصاريح العبور من عددٍ لا ينتهي مِن الحواجز وقوانين حظْر التّجوال، وتصرّ على أن أنتهي مِن كلّ أطباق الفطور. ورغم آلام الحملِ واظبتْ على أداء واجبها منذ زواجنا، وشراء الشاحنة.

---

(١) مِن وحي عنوان رواية الكاتب الكبير الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال».

في البداية، اعترضت وثارت في وجهي، وهدّدت بطردي من البيت.. أو تفجيره بعبوةٍ ناسفة على رأسي، وسوف تترك هذا البلد المنكوب، وتسافر إلى أمريكا، أرض الأحلام، شقيقتها «روح» التي أرسلت لها رسالةً مُختصرة ردًّا على سبابها، قالت فيها: إنّ زوجي بعد ١١ سبتمبر أصبح يكرهها، ودأبَ على إهانَتها، ولا يتورّع عن سبّ العرب والمسلمين الإرهابيّين القتلة، «ولكنّني سأدعوك لزيارتي قريبًا، نعم.. سأسافر إلى أمريكا سيدتك وسيدة العالم».

كنت أنتظرُ على مقعدي حتى تنتهي من موجةِ هياجها العبثي، وأسألها في هدوء: قلت كلّ ما تريدين؟!

تضغطُ على جانبي شفتيها مُستنكرة، فأضمّ وجهها الصغير بين كفّيّ:

- الموت حقّ.

- ولكلّ أجلٍ كتاب.

وتزداد ثورتُها وهي تغالب دموعَها:

- وليس معنى هذا أنْ نذهب إليه، إلى عُقر داره، «خضر» لو حدث لك مكروهٌ لن أعيش يومًا مِن بعدك.

تضمّني إليها، وتتعلّق بي مثلَ طفل، كأنها تقبضُ على الحياة.. على حائط الأمان الذي بقي لها في هذا العالم البغيض، وأشعرُ بها تلاحقني في رحلةِ هروبي الأزليّ؛ بحثًا عن منفذٍ يخرجني من الحصار القاتل، مِن الدائرة المغلقة التي تضيق عليّ يومًا بعد يوم.

قالت لي عندما هدأت: حياتك رحلةُ سفرٍ لا ينتهي.

- ....

بعدَ زواجنا، بدأت رحلتها معي، دخلت غابة الكلام، وحاولت أن تستردّ وعْيها، فواصلت رسالتها في استخراج مكنون قلبي.. في أول أيام الحَمل، عندما شعرتْ بقلبٍ صغير ينبضُ في أحشائها تعلّقت بي بشكلٍ جنوني. كانت تجلس أمامي تتأمّل ملامحي، وتمدّ أصابعها لتتحسّس وجهي، فأقتربُ منها وأقبّلها لتتأكّد من وجودي إلى جوارها، تهمسُ لي وكأنّها تتحاشى الاقترابَ من جرحٍ حيّ:

- قلْ لي، اكشف لي الماضي الذي يمسك بتلابيبك، ويدمّر كلّ فرص الخلاص والخروج من الدائرة.. ما هو سرّك الذي تخفيه عنّي؟»

في هذا الصباح، حاول أن يكشفَ لها سرّ الحاضر ليحكمَ به الغطاءَ على بئر الماضي الأسود الذي يطارده وهو يتأهّب ليقول لها إنّ فصيلًا مقاومًا كلّفه بعمليّة تفجيرية.. أين، ومتى؛ لا يعلم. فمنذُ أسبوعين قبض عليه في السماوة، ودُفع معصوبَ العينين إلى أميرهم الذي استقبله قائلًا:

- العملياتُ الاستشهادية لها رجالها، ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾.

سأله خضر، أعطى لنفسِه الحقّ في أن يسأله:

– ما المطلوب منّي؟

كان الأمير يجلس أمامَ «لاب توب» يعبثُ بأزراره، ولمح «خضر» عدّة صور وهو يقودُ الشاحنة، وهو يقفُ إلى جوارها، وهو يعبر أحدَ الحواجز..

قاطع القائدُ الدهشة، وقال:

– أنت تحتَ السيطرة منذ شِرائك الشاحنة، والبعضُ يعتبرك متعاونًا مع الاحتلال.

صرخ خضر: لا.. لا.. لا!!

استرسل الرجلُ في حديثه، وابتسامةٌ جامدة على الوجْه:

– أنا تأكّدت من ثقةِ الأمنِ وقوّات التحالف فيك.

أشار إلى أحدِ النقاط على خريطةٍ ظهرت على الشاشة، واستكمل حديثَه: نريد أن نفجّر هذه النقطة.

استجمعَ «خضر» شجاعته، وقال:

– أنا لا أصلحُ لهذا العمل، أنا..

قاطعه، وقد ذابت ابتسامتُه:

– نعرف أنّك جبان. الشاحنة ستكون أشجعَ منك، دورُك أن تقودها إلى هنا، ستعبر بها مِن نقطة التفتيش هذه، وهذه..

وأشار إلى أحدِ النقاط على الخريطة، واستكمل حديثه:

– هنا، ستترك الشاحنة لأحدِ شهدائنا البواسل، وتنصرف.

– ولكنّها مصدر عيشي، وتفجيرها معناه..

– سنعوّضك بشاحنةٍ أخرى إذا نفّذت الأوامر.

ثمّ بلهجةِ تهديد:

– وأنت تعرفُ عقابَ مَن يتعاون مع الاحتلال.

تصدم «خضر» برهة خاطفة، سيارة «نافذ» المتناثرة والأشلاء.. والسحابةُ السوداء التي أغلقت كلّ معالم المكان..

ضغط قائدُ الجماعة على أحدِ الأزرار؛ فظهر «كليب» قصير يتمّ فيه ذبحُ رهينة.. والدماءُ تنسكب على الأرض.

أنت تحتَ السيطرة، امتدّ صدى الحروف، وصوتُ الزعيم مثل سلكٍ شائك، حاصره حتى ضاقتْ حوله الدائرة، فضمّ زوجته إليه ملتمسًا بعضَ الدفء والأمان، وبعضًا مِن الحياة التي يشعر بأنها تقترب من فوّهة بركان.. وها هو ينفجر، ويقذفُ بالغطاء ليخرجَ ما في البئر الأسود مِن ماءٍ آسن كريه الطعم والرائحة.

سألته:

- ما بك؟

- إخوتي في مصر ينكرون وجودي.

- ماذا؟!!

- لا يعتبروني أخًا لهم.

- ......

- يعتبرونني لقيطًا، ابن زنا..

فجّر السرّ القديم متحاشيًا السلك الشّائك الذي يتأهّب للانقضاض عليه، أخرجَ ما في صندوقِه الأسود مِن ماء آسنٍ ليهرب من فوّهة البركان، والمصيبةُ التي ينتظر سقوطها فوقَ رأسه بعد أيام، وربّما بعد ساعات وهو يعبرُ بالشاحنة من الحواجز ونقاط التفتيش.

-٢-

روميساءُ الأمين

«خضرُ الذي اقتحم حياتي مثل الحلم، حسبته برهة مِن سياق خارج الزمن. رفضتُ أنْ أفتح عيني فيتبدّد، وأصحو فيهرب، تعلّقت به خوفًا من أن يذهبَ ويختفي مع أوّل شعاع للحقيقة يلامسُ عيني ويستقرّ معناه في عقلي، ولكنّ الرفض لم يدُم، وسألته: ما بك!؟ فصحوت، واكتشفت أنّه حقيقة وليس حلمًا. حقيقة انسابتْ على عيني وعقلي ووعيي، وطَعنَتْ صرختي المسكونة بالصمتِ العاجز، لماذا قالَ ما قال؟ لماذا اعترفَ لي؟! ومِن أين أتتْه أكذوبة أنّه لقيطٌ؟! بن زنا، والـ (لا) التي أردتُ أن أنفجرَ بها لأسد البئر الأسود، لم تبرحْ فمي.. وانْساب ماءٌ آسنٌ أصابني بالغثيان..

جلست إلى الكمبيوتر، وعدتُ إلى أوراقي القديمة التي كتبتها في رسالتي عن خضر بنِ ماءِ السّماء، كان قد اعترفَ لي بأنّه جاء من مصر مطرودًا بعدَ وفاة الأب والأمّ، وطمعَ إخوته في ميراثِه فأشاعوا

أنّه لا يمتّ لهم بصِلَة، وأقرّ لي اليوم بالسبب.. طردوه لأنّه لقيط، وقد قصد الحاج ماءُ السّماء فيه الثوابَ؛ فربّاه..

قرأتُ لحميد ما كتبتُه قبل الغزو بقليلٍ فقال: «قدْ تجدين تفسيرًا في نظرية أزمة الابن الأوسط، وخذي الإمام عليًّا بن أبي طالب نموذجًا، وأيضًا الابن الأثير لدى أبويه سيدنا يوسف بن يعقوب مثلًا حيًّا، ولا تعتمدي على الكوجيتو الديكارتي، فلا يوجد في الكون عقلٌ سالب. العقلُ والزمان اعْتبريهما زمنكان، دراما الحياة ودراما التاريخ، ومِن المُمكن أن تجدين تفسيرًا في البنية الأوديبيّة التي كنتُ أعتبرها- وكما قال أستاذي الدكتور أيوب الظاهر، المشرف على رسالة الماجستير- إنّها الثابت العامّ للنفس الإنسانية، اعتبرت «خضرًا» نموذجًا مثاليًّا، ولا بدّ من الوصول إلى آليّات لأصلَ بها إلى منطقة اللاوعي، وأبدأ منها...

أفقتُ من شرودي، وضغطتُ على «الكي بورد».. وقد ملأني شعورٌ بالذنب، ورحتُ أؤنّب صمتي وعجزي، وهو يطلق قنبلتَه في وجهي، أنا ابن زنا، وأنا أضغطُ على شفتيّ المرتعشتين العاجزتين. نعم، كنت أشعرُ بالغثيان، بالقرفِ من هذا الرجل الذي اقتحم حياتي، ولولا الغزو الأمريكي الذي قهر بلادي وقهرني؛ ما كان لي أنْ أتزوّج منه. من الرجل الذي اعْترفَ لتوّه أنه لقيط، مثل النّبْت الشيطاني.. لا يعرفُ له أبًا، ولا ينتمي إلى أهل.. وربّما، لا ينتمي إلى وطن. احتواني الضيق وهواءٌ ثقيل يملأ صدري، ويضغط على قلبي الجريح، وعلى أحشائي التي ينبت فيها عالمٌ جديد. أنتظره لأهرب إليه، وأحتمي به، و»خضر» الذي اختلطتْ مشاعري نحوه، أشعرُ الآن أنّني

أحبّه، وأتذكّر صورته وهو يخطو صوبَ الباب منكّس الرأس، فيملؤني حنوٌّ جارف نحوه. كان يبدو- في هذا الوقت- وحيدًا ضائعًا منذ لحظةِ اعترافه بالسرّ الدّفين، كان شيء قد كُسر بداخله، حتى أنّه قال أنا أشعر بالعار.

قبل ربعِ قرنٍ، كان لا يصدّق التخرّسات التي أشاعتها ألسنةٌ جُبِلت على هتْك الأعراض وإشعالِ حرائق الخراب في البيوت العامرة، واليوم يطارده خاطرٌ لعين، يسمع صوتَه، أنت ابنُ زنا...

اصطحبته إلى السيارة، وهو يشعر بنظرتي نحوه، ويرى شفتي المرتعشتين.. وكأنّهما ينظران إلى شيء مقزّز، إلى جيفة..

وهو يستقلّ الشاحنة، قال وهو يتحاشى النظرَ إليّ:

- لو تأخّرت لا تقلقي.

سادت لحظةٌ صامتة قطعها صوتُ الموتور، وانصرفَ خضر..

وصل الرنينُ فشملتني رِعشة الشّفتين، رفعت الجهاز فوصلني صوتُ ماري أرنولد، صوتها الذي اعتدتُ عليه، بنبرته التي تقودني نحْو أعتاب صداقةٍ جديدة، وصورتُها على شاشة الموبايل تلحّ على عقلي وتتحوّل إلى ملاكٍورديّ هبط من السماء ليرفع جثةَ ابنها إلى الملكوت الأعلى. كانت تبدو- رغم سنوات عمرها المتقدّمة- كطفلة. وألمح في عينيها الجميلتيْن رقّةً بلا حدود، وشفتاها الرقيقتان تتحدّثان لي، فيحضرني صوت أمّي، ووجهها الجميل الرّائق مثل قمر، منذُ شهرين اتّصلت بي وقالت:

- روميساء، أنا الآن استقلّ القطار الدولي في الطريق إلى تركيا.

واليوم، تعاود الاتصال بي:

- رغم رفضِ السفارة الأمريكية في اسطنبول على سفري إلى العراق، لكنّني سأزلّل هذه العقبة.

- ماري الوضع هنا لا يُطاق.

- من حقّي أن أعرف الحقيقة.

- Sory، هنري قُتل.

- أعرف، ولكنّهم لا يعترفون بذلك، وأنا أصرّ على استلام جثمانه، والعودة به إلى بلده.

- البنتاجون سيتولّى الأمر.

- المسئولون لا يقرّون بموته، أنا أريد جثمان هنري.

قالت إنّها تجتاز شارع ميسرتيت الذي يخترقُ ضاحية تبيس في طريقها إلى مبنى السفارة الأمريكية، وهي تواصل حديثها عبر الموبايل:

- بعد دقائق، سأقابل جنرال كبير، وسأجبره على الموافقة على سفري إلى بغداد.

أغلقت الموبايل، وأنا أعيدُه إلى المائدة رأيت أجندة هنري جو أرنولد تستقرّ في مكانها، منذ أخرجتها من الحقيبة السوداء وطرحتها على المائدة.. رفعتها وتأمّلت صورته وعيونه المثيرة، وملامحه المبتسمة المُقبلة على الحياة، فتحتُ أوراقها وقرأت العنوان «يوميّات الحرب».

ـ ٣ ـ

هنري جو أرنولد

«اليوم....

أكاد أصلُ إلى حدّ الجنون بعدما شاهدت بعيني مَذبحة مروّعة هنا في شوارع الفالوجة، الجثث مُلقاة في كلّ مكان، المشاهد البشعة للأطفال المبتوري الأطراف، وقد ذُبحوا بأشدّ الطرق وحشيّة..

زملائي الجنود ينطلقون، وقد جرفتهم شهوة القتل، كنت أقفُ مشلولًا أحاول الصراخ.. كفى، كفى، جريت نحو جنديّ كان يَنهال بكعبِ بندقيّته على أحدِ الأبواب، وقلتُ له: علينا أنْ ننصرف. اندفعَ جنديّ آخر، وأمطر الباب بوابلٍ من الطلقات، وصراخ هستيري يعْلو من الداخل مع اقتحام الجنديّيْن، وقد حاولت مَنْعهما فدفعني أحدُهما، وقال صارخًا: إنّهم إرهابيّون، إرهابيّون!!!

قبضتُ على بندقيتي في عصبيّة، وأنا أتأهّب للدخول ومنعهما بالقوّة، وصلتني نداءاتُ استغاثة مُختلطة بطلقات الرصاص، وصرخاتٌ صغيرة تردّد.. ماما، ماما.

اندفعتُ لوقف المجزرة، فاصطدمتُ بالجنديّين يدفعان سيدةً تقاوم الجنديّين في استماتةٍ وتصرخ: يا كلاب، أنتم خنازير، اتركوني. دفعها أحدُهما نحو الحائط، وأخرج سكينًا قضّ به ثوبها، حاولتْ بيديها المكبّلتين سترَ جسدها فأحْكَما القيد. وهُما يتابعان جسدَها بعيونٍ شَرهة، وهي تنتفض، ثمّ توقّفت عن المقاومة والصراخ، وأطلقت نظرة قاتلة وهي ترشقُهما ببصقةٍ حارقة وتصيح: خنازير، كفرة. انْفجر الجنديّان بالضحك، ثمّ انقضّ أحدُهما عليها فقاومته في استماتة، وقالت: لن تنال منّي وأنا حيّة؛ اقتلني يا جبان. في هذه اللحظة، أعددتُ بندقيّتي لقتلهما، وأنا أندفعُ لأنهال على الرأسين الخَرِبين، كانت أصواتُ رصاصات مُتتابعة تنهالُ على الفتاة لتسقط وهي تغمغِمُ في ضعف ما يُعرف عند المسلمين بالشهادة.

في اليوم التالي، طلبتُ من أمّي تليفونَ جون بروست صديق والدي والقاضي السابق في محكمة مجرمي الحرب التابعة للأمم المتحدة».

– ٤ –

خضر بنُ ماءِ السّماء

« لآلئ الصباح التي أشرقت وأنا أنطلق بالشاحنة على طريق كركوك/ الموصل؛ بدتْ كثقوبٍ سوداء، ثقيلة، تفتح فوّهتها العميقة لتبتلعني، تحاصرني أحاسيس الكآبة والضيق، والندم يفري الضّلوع. يتحرّك في جوفي مثل قنبلةٍ غبيّة لا تعرف هدفها، وتحلّقت حولي الأسئلة مثل سربٍ من طيور جارحة، تتأهّب لتأكل من رأسي فوْر طرح جثتي في الخلاء، أنا الذي يحسبه البعض متعاونًا مع جنود الاحتلال..

فلماذا فجرت السرّ، وأخرجت ما في الصندوق الأسود من ماءٍ آسن، لماذا قلت أنا ابن ز...ا، لا، تنفجر الصرخة مشحونةً بالغيظ والاستنكار، وينفثُ بخار حروف الثورة فيخرج صوتٌ غير صوتي، آه يا ابن الكلب، ترتدّ صرختي مشحونة بغيظٍ أشدّ، تنهال على وجهي مثل صفعات حارقة، فتضغط أصابعي على عجلة القيادة في عصبيّة، والكلمات تنطلق من فمي: أبي الشيخ ماء السماء كان طاهرًا نقيًّا، وأمّي طاهرة، نعم الشيخ أبي وطاهرة أمّي وأمّ إخوتي الذين تسلّط عليهم الشيطان، وأغرقهم في بئرِ الغواية، طمعوا في حقّي وأشاعوا أنّني لا أمتّ لهم بصِلَة، لأنّني لقيط.

مرّت على ذاكرتي آخر ليلةٍ قضيتها في مصر، منذ عشرين سنة كانت التخرّسات التي أشاعها مَن نبذوني صغيرًا فوْر وفاةِ الأب والأمّ، وقذفوا بي بعيدًا.. والعيون تحدقُ نحوي في بَلادة، وحتى الابتسامات المضمّخة بالرحمة كانت لا تخْلو مِن سخرية وشماتة عجيبة، كنت لا أفهم دلالتها، واليوم.......

مارس ١٩٨٣م

شبّ «خضر» ناقمًا بعدما قطعت شرايين صلةِ الرحم بينه وبين إخوته، سالت دماؤها وأجهزَ الجفاء على النّبض الأخير الصادر من القلب. كان قد شيّع رفات الإخوة إلى مثواه قبل وفاةِ الأب والأمّ بوقت طويل، قال له صديق:

- إنّه حقّك، والساكتُ عن الحقّ شيطان أخرس.

ويدور حوله، ويشيح بقبضته لاعنًا ما يراه خنوعًا وبلادة، فحقّه- خضر- الشرعي يُغنيه عنِ السفر والغربة ومذلّة السؤال، وها هو يلوذُ بالصمت، وتقتحمه رؤى مُتداخلة، تقتحم قلبَه الباحث عن الحقيقة..

يقول صديق ساخرًا: الحقّ أولى بالبحث عنه.

يردّ «خضر» باقتضاب: لا خيرَ لي في حقّ يتبعه سفكُ دم.

لمعةُ العين أيقظت هسيسَ الأقاويل النائمة، والتي ظنّ الجميع أنّها تموت على بُعد خطواتٍ منه، تخرس حروفها، تصله مساحة من الصمت، ولكنّ «خضر» كشف المستور وأعلنَ المواجهة، لا أعلن الاستسلام إيثارًا للسلامة، ورشقه صديق بنظرةٍ كريهة، أراد في هذه اللّحظة أن يقتله، يقتل فيه العجزَ والاستسلام والبلادة، فكيف يصدّق هذه الأقاويل.

صرخ «خضر»:

- إنهم يلوّثون ثوبي الطاهر من أجل المال.

- خذْ حقّك، وتبرّأ منهم.

- حقّي لن يموت.

- لو أهملتَه سيموت.

- الحقّ لا يموت.

«انتبهت على وجود إحدى نقاط التّفتيش تعترض الطريق فتوقّفت. وأشار أحدُ الجنود لي، حملت أوراقي وهبط من الشاحنة، قادني نحو غرفةٍ يبدو أنها شِيدت على عجل، وعند بابها وقف رجلٌ يرتدي زيًّا عسكريًّا.. وما إن اقتربتُ حتى عرَفته على الفور، فقد كان ممّن شاركوا في اختطافي، بادرني بابتسامة جافة وقال:

– اليوم ستتمّ العملية.

وأمرَ بقية الأفراد بإعداد المتفجّرات وتثْبيتها في الشاحنة. في هذه اللّحظة، كادَ القلب يتوقّف من الخوف، ويسقطُ في البئر الأسود، وفي سرعةٍ بدأ الرجال يثبتون القنابلَ وعجائن التفجير بين أجزاء الشاحنة التي تقتربُ من نهايتها المُفجعة.. وأنا، لا بدّ أنّها ستنفجرُ قبل أن أصل إلى شهيدهم المزعوم، إنّها خُدعة.. يخدعونني، فأنا الشهيد المنتظر، نظراتُهم الثاقبة التي تخترق عظامي، وابتسامة الرجل الجافة، الخالية من أي معنى تشي بذلك. وعند أول نقطة تفتيش ستنفجرُ الشاحنة، وبين هشيمها لن يعثرَ لي على أثر.

في دقائق، انتهى كلّ شيء، وبدأ الرجال يرفعون الحاجز ويخفون آثاره، صعدتُ الشاحنة ولوّحت بيدي وانطلقت، جذبتُ دفقة من الهواء اجتازت صدري في صعوبة، والشاحنة تسير، وصورةُ الذبح الرهيبة تطاردني، وسيطر هاجسُ الموت على رأسي.. وها أنا أسير عبْرَ فوّهة تزداد ضيقًا كلّما تقدّمت اقترب منه– الموت.

والشاحنة تسير، وما يموج في تجاويف عقلي من تداعيات تجاوزت إحساس الخوف. في البداية، فكّرت في الهروب بحياتي، وألحّت الفكرة على عقلي، وبدأت أنتظرُ مكانًا أقفز فيه من الشاحنة. لا بدّ أن يكون قبل منحدر أحدِ التلال، أو يكون على قمّة جسر، أقفز منها وأتركها تسقط

وتنفجر، ولكنْ وأنا أنظرُ في المرآة إلى السيّارات التي تعبر إلى جواري؛ انتابني شعورٌ بأنني مُراقَب، فلا بدّ أنّ التنظيم يراقبني، يتبع خطواتي.. نعم، لقد قالها الرجل «نحن نعدّ لهذه العملية منذ شهرين»، بالتأكيد عملوا حسابَ كلّ شيء، ولو جبنت، وهنت، تراجعت؛ سأجدُهم في انتظاري، يقفلون في وجهي الطريق، وينزلون حكمهم بذبحي، وملأني يقينٌ بأنّ الموت سينقضّ على رأسي، وها أنا أسيرُ عبر فوّهته التي تزداد ضيقًا كلّما تقدّمت واقتربت، ولاحتْ على البعد نقطةُ التفتيش الأولى.. وعاودت دقّات قلبي ضرباتها، فبعد قليلٍ سأكون أوْ لا أكون. واصلت السيرَ والاقتراب، وفوّهة الوقت تواصل حصارها، واللحظاتُ الأخيرة من العشرين عامًا مِن العزلة تقتربُ من نهايتها، ووجوه قوة البوليس المألوفة تقترب مني، وفجأة وصلَ رنين الموبايل، انتفض الجسد، وتوقّفت دقات القلب للحظاتٍ قبل أن أنْتبه، رفعت الجهاز متوجّسًا، ضغطتُ على الزرّ.. وأنا أتوقّع أن أسمع أميرَ التنظيم يلقي بأمرٍ ما، ولكنْ ما وصلني كان صوت:

– خضر، لا تتأخّر؛ بدونك أشعرُ بوحدة قاتلة.

روميسة، يااااه، رفعت عيني إلى السماء وكدتُ أبكي، أنفجر من الحزن عندما يضغط عليّ فرح مفاجئ. وقبضت عليّ تداعيات وأحاسيس متناقضة، وأنا أقول:

- سأعاود الاتصال.. مع السلامة.

وصلتُ إلى نقطة المرور، وأشار لي جنديّ بمواصلة السير، عبرت الحاجز وأنا أفتح فمي لأملأه بالهواء الكثيف.

وصلني الرنين مرة أخرى، وجاء صوتُ عضو التنظيم:

- أمامك نقطةٌ يا بطل، ربنا معاك.

توقّف صخب القلب، وأيقنت أنّ الموت بات ورائي، ولن يلحق بي، فالعملية حقيقيّة.. وليست خدعة كما صوّر لي الخوف. والتفسير الخاطئ لنظرات الرجال وهُم يثبّتون المتفجرات في جوف الشاحنة، وابتسامة قائدهم الجافة، وسوف أعبرُ نقطة التفتيش الثانية، وأنتظر الأوامرَ الجديدة.

رفعت الموبايل، واستدعيت رقمَ زوجتي، روميسة.

– ٥ –

روميساءُ الأمين

«خضر، متى تتلاقى العيون؟ متى؟ أريد أن أسبقَ الزمن ونلتقي.. وأعتذر عن صمتي.. وتقزّزي، وأعترفُ لك بأنّني أحبّك، أحبّك، حبّك الذي ينطلق في قلبي مثل عاصفةٍ تجتاح كلّ كياني.. تنزع مني كلمات متلاحقة. خضر، أرجوك لا تغضب، كم كنت غبيّة لأنّني لم أودّعك كما يجب.. لم أضمّك إلى صدري وأقبّلك كما كنت أفعلُ في المرات السابقة.. أنت تعرف أنّني بدونك يلفّني الخوف، ويربضُ في ممرّات روحي التي تحبّك..

وأنا أواصل الحديث، طفرت الدموعُ من عيني، وحاول خضر- وقد اختنقت كلماتي- أن يطمئنَني فقال لي معتذرًا:

- وأنا أحبّك.

- سامحني أرجوك.

- أسامحك؟!!

- لأني في لحظة، تشكّكت في حبّي لك.

- روميسة، أنا...

قاطعته:

– أنت.. كلّ ما يهمني هو أنت.. خضر الذي أحبّه. أبوه.. أمه.. أهله.. بلده، لا يهمّني في العالم كله إلّا أنت، أنت ولا شيء.

قال في إلحاح:

– تذكّري ما قلته لك، إخوتي أشاعوا جريمتهم النّكراء ليحرمونني من حقي في تركة أبي، اطمئنّي أنا خضر بنُ ماءِ السماء.

قبّلته عبر الموبايل:

– حبيبي، لا تتأخّر؛ فأنا أنتظرك.

أغلقت الموبايل.. وتأهّبت للنوم، وأنا أتناول يوميّات هنري، وأعاود القراءة..

اليوم ١٥ سبتمبر ٢٠٠٤ م

توقّفت عيني على التاريخ، وأضاء وميضُ ذكرى اليوم الذي قُتِلت فيه أمّي، نبت خاطر مثل ضوءِ شمعة.. تدفّق إلى قلبى صوتٌ حزين، وتساءلت.. هل كان هنري واحدًا مِن قافلة الإعدام التي قتلت أمّي؟! هل هو واحدٌ من القتلة؟ هل حضر تنفيذ الجريمة ووقف عاجزًا عن منْعِها حتى تمّت، أمْ شاركهم وهُم يقهْقِهون في ساديّة مَقيتة؟!

هززتُ رأسي لأنثر غبارَ الأفكار، وعاودت النظرَ إلى التاريخ مرّة أخرى، وانتبهتُ إلى أنه بعد قتل أمّي بعام تقريبًا، وأنا ألفّ جسدي في السرير، كنت أقاوم مشهدَ الجريمة، وقد انضمّ إليه هنري جو، وأنا أدور في أرجائه وأجزائه.. أضغط عليه لأمحوه من ذاكرتي، رفعت الكلمات أمام عيني، وقرأت..

- ٦ -

هنري جو أرنولد

«اليوم، حضر الجنرال أنطوني وتناول معنا العشاء. كان يجلس قبالتي تقريبًا، تأمّلت ملامحَه التي تشي بعدم الراحة، لقد بدأ يدرك صعوبةَ الموقف.. المأزق الذي وصلنا إليه. هنا يعتبرنا الناسُ قوّة استعمارية.. منذ اللحظة التي أتينا فيها دونَ موافقة الأمم المتحدة.. وجودنا بقوانينا التي وضعناها غير شرعي، واستمراره سيؤدي إلى كارثة، فالوضع يزداد سوءًا، والإدارة لا تريد أن تعترف، وكلّما حاصرتها المعارضة للحرب. يقول الرئيس:

- إنّ الله أمرني بها.

لساعتين، وأنا في فراشي أحاول النوم. كنت أضع إلى جواري جهاز تنسابُ منه موسيقى كورساكوف، وأرى- فيما يرى النائم- صورة أمّي وهي تؤدي رقصة شهر زاد الأخيرة، غفوتُ قليلًا حتى صدر الأمر بالاستعداد لعمليّةِ هجومٍ على بعض تحصينات جماعةٍ إرهابية».

– ٧ –

روميساءُ الأمين

توقّفتُ عن القراءة، وأغمضت عيني، ونمْت، وبدأ حلمٌ كدمدمات تحوّلت إلى لوحاتٍ متداخلة، ثمّة انفجار يأتي صوته مدوّيًا، وأدركُ- وأنا أرى تفاصيلَ الحلم- أنّه حلم، تزدادُ فيه الصور كثافة وارتباكًا قبل أنْ ينقشع الضباب، جنودٌ من المارينز يدفعوننا إلى فناءِ مبنى قديم. واصطففْنا أمام جدار، وتأهّبوا لإطلاق الرصاص علينا، وفجأة ظهرَ هنري، جرى نحو الجنود وأمرهم بالانصراف، وأوقف المجزرة.

– ٨ –

خضرٌ بنُ ماءِ السماء

«بدا الظلامُ مثل كائنٍ أسطوري. وعلى البعد ظهرت كشّافات نقطة التفتيش الثانية مثلَ عيونٍ حمراء.. وعاودني الخوف، كان أقلّ حدّة.. ولكنّ مساحة المجهول التي امتدّت أمامي كحقلِ ألغام أسيرُ نحوها وأنا أشعرُ بألم مفاجئ يعتصر أحشائي. تحاملتُ وأنا على مرمى حجر.. وقد غمرت العيون الحمراء حدودَ البصر بنور خافت. عند مدخل مكتب قائد النقطة، لمحتُ العلم الأمريكى، فتحوّل الألم إلى رعشةٍ شملت جسدي.. توقّفت وأبرزت الهوية والتصاريح، وأنا أتكلّف ابتسامةً للجندى الذي تفحّصها في صمت.. واحتواني بنظرةٍ لا تخلو من الشكّ.. فها هو شيء غير المتوقّع، والذي لم يعمل التنظيم المقاوم حسابَه. وبدا الجندي- وهو يرمقني بعينيه- على علمٍ بكلّ شيء بتفاصيل العملية. وأنا أخفي توتري وأضغط على آلام جوفي.

أخرج الجندي ملصقًا للعلم الأمريكي، وثبّته على الباب وهو يقول هامسًا: الشهيدُ في انتظارك بعد دقائق، ربنا معك.

انفعالاتُ العمر كلّه شعرت بها مثلَ لحظة ارتطام الرأس بجدارٍ صلب. كان الوجعُ المؤلم الذي يفتك بي وهو يودّع الجسد هو الدليلَ في هذه اللحظة على أنّني مازلت على قيْد الحياة.

واصلت السيرَ وأنا أفتح صدري للهواء، وفكّرت في استدعاء روميسة على الموبايل، ولكنّها بالتأكيد نائمة، ملتفّة في سريرنا. وأنا أستعيد وجودي، والدماءُ الدافئة تسيل في عروقي.. اشتقت لها، لوهج جسدِها وهو يشعّ بنور الأنوثة.. لضحكتها التي تنسالُ وتغمرني بالنشوة.

أفقتُ من الوهج ونورِ الأنوثة على رنين الموبايل، وكان قائدُ التنظيم على الطرفِ الآخر يقول بلهجةٍ حادّة آمرة:

- قفِ الآن.. واهبط من السيارة.

ضغطتُ على الفرامل، وأسرعتُ بالهبوط، ثمّ قلت:

- نفّذت.

- ابتعدْ عن السيارة.

ابتعدتُ عدّة خطوات، استدرتُ وألقيت نظرةً أخيرة على الشاحنة، كانت رابضةً في الظلام.. ورفعت يدي، وقلت: وداعًا. وواصلت السيرَ وأنا أسقط عيني نحو السّماء الممتدّة، والنجومُ اللامعة تستقرّ شاخصة في هدوء، أحسستُ برائحةِ الشهيد تقترب.. وشملني- للحظة- يقينٌ بأنّني لأوّل مرّة منذ عشرين عامًا أخطو إلى الأمام، لأوّل مرةٍ في حياتي تتحرّك قدمي خطواتٍ أكيدة وحقيقيّة إلى الأمام، وها هو محيط الدائرة المُغلقة يقترب.. ويقترب، وأنا أتأهّب للاجتياز والعبور من محيط العزلة الذي ظلّ يضغط على عقلي وكلّ كياني، وصل صوتُ صكّ أذني:

- قفْ.

كان الصوتُ مصحوبًا بصوتٍ أحدثه شدّ مجموعة أجزاءِ بندقيةٍ آلية سريعة الطلقات.

وقفتُ ورفعتُ يدي..

(٤)

«شرقٌ المتوسط» [١]

- أ -

ماري أرنولد

«قضيتُ ليلتي بأحدِ الفنادق القريبة من القنصلية الأمريكية، وفي الصباح كانت زخّات خريفيّة تتساقط من سماءٍ رمادية، بدت مثل كائن عاجز.. وهذا العجز تأكّد عندما جلستُ إلى الجنرال في مكتبه بالقنصلية أستمع إليه:

- سيدتي، لن ننتظرَ ونحن نرى الأصوليّين الإسلاميّين يحاولون بسطَ إمبراطوريّتهم من أسبانيا وحتى إندونيسيا.

كانت ملامحُه مُجهدة. كنت في الليلة السابقة قدِ انتهيت من قراءة أحدِ الكتب عن الحرب، وشرد ذهني فلم تعدْ تصلني كلماته، وأنا أحاول البحثَ عن تفسيرٍ للحرب، لهذا السلوك البشري الذي أريقتْ بسببِه دماء كثيرة.

وجدتُ نفسي أقاطعه:

- سيدي، ليس لي علاقة بكلّ ما تقول.

---

(١) شرق المتوسط: روايةٌ للكاتب الكبير عبد الرحمن منيف.

كزّ على أسنانه في نفادِ صبر، وتساءل:

- لماذا؟

ارتسمتْ أماراتُ الدهشة على وجهي، فأكمل سؤاله:

- لماذا تصرّين على السفر إلى العراق؟

- لأقفَ على مصير ابني هنري جو أرنولد.

- هنري مفقود.

- معلوماتي تؤكّد أنه قُتل.

- ليس عندي معلومات بذلك.

شعرتْ ماري أرنولد بأنّ الكلمات التي تُقال فارغةٌ من المعنى، هي التي كان عالمُها عامرًا بالمعاني، بالموسيقى.. بالرقص، كلّ شيء في حياتها كان له معنى.. إيقاع الخطوات، إشارة اليد.. الأنامل.. اللّفتة.. النظرة.. مساحة الصمت...

كتب زوجُها في كتابه «الرقصة الأخيرة لزهرة البامبو».. إذا لم نفهمْ لغة الصمت؛ فلن نفهمَ لغة الكلام..

لم أتحمّل كلماتِ الجنرال وهو يبرّر منطق الحرب الوقائية، والخطف، والتعذيب، والاحتجاز الأبدي دونَ محاكمةٍ لأي شخص يتمّ اعتباره وفْق مرسومٍ رئاسي؛ محاربًا غير شرعي.

صرختُ في وجهه:

- اصمت؛ لكي أفهم ما تقول.

قال باقتضاب:

- كلامي مفهوم.

ابتلعتُ غيظي وثورتي، وقلت بلهجة تحدّ:

- طبعًا.. أمريكا تحارب الشرّ بكلّ الوسائل المتاحة.. لتصبح كلّ الوسائل مباحة. وفي الحرب العالمية الرابعة.. الحرب الدائمة لا يجرؤ أحدٌ على طرح الأسئلة. إنّ أمريكا تخاطر يا سيدي الجنرال إذا ما اعتمدتْ مقولة نائب وزير الدفاع بول وولفتز، أنّنا سنبقى أمّةً بحالة حرب، حربٌ تحرّكها حكومة الظلّ، وشرَهُ شركات الدّمار الشامل للبشر. إنّ ذلك يا سيدي الجنرال هو الجنونُ بعينه.

علقَتِ ابتسامة ساخرة بوجهه، وظلّت ثابتةً للحظات، كرّرت رجائي:

- سيدي، أريد تصريحًا بالسفر إلى بغداد.

أمسك بقلم، وأخذ ينقرُ على زجاج مكتبه، ثمّ قال:

- تسافرين بأيّة صفة!؟

- بصفتي أمّ هنري جو أرنولد.

- لا توجد تصاريح سفر بهذه الصفة.

- إنّها الحقيقة.

- الحقيقةُ هي رغبتك في السفر، وأنا أقدّر رغبتك هذه. ولذلك أنصحُك بالبحث عن وسيلةٍ تحقّق رغبتك.. ابحثي وأنا تحتُ أمرك.

أطلّت عليه بعينيها الجميلتيْن، وملامحِها الطفوليّة رغم السنوات التي تضغطُ على كاهلها، ومدّت أصابعها، وأخرجتْ من حقيبتها بطاقةً قدّمتها له، وقالت: أنا عضوٌ في الصليب الأحمر.

تناولَ الجنرال البطاقة وقال:

- حاولتُ منعك خوفًا عليك؛ فالحربُ هناك تسير من سيّئ إلى أسوأ.

- أرجو أن تعدّ تصريحَ السفر فورًا.

كادت تبكي مِن فرْط التأثر، وهي تمسك تصريحَ دخول الأرض العراقيّة. خطتْ في أرجاء الغرفة في طريقها للخروج.. نفس الخطوات التي تدرّبت عليها كثيرًا قبل أن تؤدي رقصة شهر زاد الأخيرة على أكبر مسارح نيويورك أمامَ جمهورٍ مِن كلّ دول العالم، كان خارجًا لتوّه من أحد اجتماعات مجلس الأمن لبحث السلام العالمي، تتذكّر شهر زاد تعبيرَها عنْ لحظة ملَلِها من روايتها الممتدّة لألف ليلةٍ وليلة، حتى أدرك شهريار الصباحَ، ولكنّها في هذه المرة لم تسكتْ عن الكلام المباح، بل أمرتْ مليكها أن يحكمَ بإعدامها. تودّد

لها راجيًا، وموسيقى كورساكوف، موسيقى الحبّ المخملي تغلّف الأجواء وهو يردّد (I Love you)، وتحلّق عبر أجواءِ الحلم الموسيقى باقاتٌ من زهور الكازابلانكا والفريزيا والجاريرداسيس قبل سقوطِها على المسرح، ثمّ أفاقت.. فتحتْ عينيها وهي تعبرُ الشارع المُثقل بالمارة...

اليومَ ولّت الخطوات والموسيقى، وذبلتِ الزهور كما ذبلتِ الوجوه، وولّت رائحةُ الحياة، وها هي تقتربُ من الحقيقة التي يرفض ضميرها الاعترافَ بها. ودونَ وعي تتمسّك ببقعة صغيرة لامعة، بقعةُ أمل تظهر وتختفي، ثمّ تؤكّد لنفسها حتى يبقى عقلُها ثابتًا في مكانٍ، ولا ينحرف وراءَ وهْم، وراء معجزةٍ تعيد ابنها إلى الحياة.. فيتردّد صدى في نفسها، وتسمع صوتًا مِن أعماقها يردّد: لا هنري قُتل. صدى الحقيقة يجتاحُها بفوضى مِن المشاعر الخرساء، مشاعر من الدهشة والذّعر، وخيبة الأمل، وعبثيّة الحياة. ويعاودها الإحساسُ القديم الذي ظلّ عالقًا في عقلها، كانت تردّده شفتاها باقتضاب، وبشكلٍ مُبْهم، لماذا؟! تردّد الكلمة في جوفِها، وتغمض عينيها، ويلفّها الصمت..

***

في أواخر الستينيّات، عندما رأت الأسلحة الأمريكية تقصف القرى والمستشفيات في فيتنام لتقتل المدنيّين الأبرياء؛ انضمّت مع زوجها للحركةِ المُناهضة للحرب، وهي تسير في المظاهرات، كانت تصرخُ في هيستريا،

كانت كلّ الكلمات عاجزةً عن وصف ما يجتاحُها من رفضٍ وغضب، وفي إحدى المرّات سقطت وحملَها زوجُها جو إلى المستشفى.. كانت تعاني من انهيارٍ عصبي حادّ، وعندما أفاقت بعدَ ثلاثةِ أيّام وجدت جو وهنري إلى جوارها. احتضنتهما برموشِها في امْتنان.. وهي تقاوم انفعالاتِها. بدأ معها إحساسٌ جديد، في فترة النّقاهة قالت لزوجها:

- جو، أريد أن أساعد جرحى الحرب.

مسّ «جو» جبينَها بأصابعه وقال:

- لا داعي لأي انفعالات الآن.

- اطمئنّ.

واستدركتْ وهي ترنو لابْنها هنري في حنان:

- أفكّر في التطوّع لخدمة الجرحى.

- وأنا معك؟

١٩٧١، كانت حربُ فيتنام قد قبضت بأنيابها على اللّحم الأمريكي، وشرعت جرائدُ النيويورك تايمز والواشنطن بوست، والتي عمل «جو» فيها مصوّرًا صحفيًّا لبعض الوقت؛ في نشر أوراق البنتاجون عن المأساة. وتابع الشعبُ- ليلةً بعد أخرى- نعوش الجثثِ والطائراتُ تنقلها إلى أرض الوطن. كان عددُ الموتى يعلَن في بداية نشرة الأخبار التي تذاع كلّ مساء.

عاودتُ الاتصال بروميساء وأخبرتها أنّ الصعوبات الحقيقية بدأت بعدَ الحصول على التصريح. فلم تجدْ شركة طيران مستعدّة للسفر إلى العراق، وأشارت عليها فتاةٌ تركيّة قائلة: إنّ الطيران الحربي الأمريكي هو المسموحُ له بالطيران إلى هناك، وعقّب زميلٌ لها: لا توجد وسيلة إلّا السفر عن طريق البر.. وهذه رحلةٌ محفوفةٌ بالمخاطر، قالت لروميساء وهي تستقرّ في غرفتها بالفندق الذي يطلّ على القنصلية الأمريكية:

- الأملُ الوحيد الباقي الاتصالُ بالصليب الأحمر.

- حلٌّ معقول جدًّا.

كانت ماري تثبّتُ سماعة الموبايل في أذنها.. ووضعت الجهاز على مائدةٍ أمامها، وقالت:

- روميساء، ما أحتاجُه الآن هو أنْ أعرفك أكثر.

- أنت تعرفينني.. صوتك هو صوتُ أمي، صوتٌ دافئ عامر بالحنان.

وكأنها تهدهدُ صهيل الألم حتى يظلّ نائمًا في القلب، تنهّدت ماري وهي تقول:

- أصعبُ ما في الحياة أن نفتقد مَن نحبّهم.

كانت روميساء تقاومُ مخاوفها وقلقَها القاتل. فقد مرّ اليوم الخامس ولم يعدْ «خضر»، وانقطعت أخبارُه. وكلّما اتصلت به ينقضّ الصوت الآلي على

أذنها معلنًا أسفها، وتليفون خضر يعلن بصوتٍ بغيض أنه خارجَ نطاق الخدمة.

أفضتْ بأوجاعها إلى ماري بكلّ هواجسها، وكوابيسِ اليقظة التي كانت تطاردُها وتقبضُ عليها بأسنان حادّة قاسية، أفرغتها عبرَ التليفزيون. قالت إنّ قلبها يتوقّف عندما تسمع صوت انفجار، أوْ تراه على شاشة التليفزيون.. وأعداد القتلى التي يعلن عنها. ينقضّ هاجسٌ على كيانها دونَ رحمة ليؤكّد لها أنّ زوجها «خضر» رقمٌ من هذه الأرقام تناثرت أشلاؤه، ولم يعد له وجود.

وماري التي غمرتها أحاسيسُ شتّى.. أيقظتها ذاكرةُ الروح من مكنونها، عندما بدأتْ عملها كمُمرضة في مساعدة الجرحى في المستشفيات. أحاسيسُ الرضا والصفاء النفسي التي حقّقت لها التوازن الداخلي شعرت بها، وهي تخرج من قوقعتها مثل براعم صغيرة تدفّقت جنة وارفة، اصطحبت روميساء إليها، وقالت:

- أنت ابنتي وصديقتي.

ردّت روميساء في تأثّر: تصبحين على خير.

- ٢ -

روميساءُ الأمين

« دقائقُ وثواني الانتظار كمْ هي ثقيلة، وكأنّني أردت أن أحرقَ الوقت، وأمحوَ حالةَ القلق التي كانت تنمو مثلَ الشوكة في أعماقي فمددتُ يدي، وتناولت يوميّات الحرب التي كتبها هنري بالدّم والنار، ولكن...

صورة زوجي «خضر» طاردتني، أغمغمُ بصوتٍ مَسْموع، خضر. فيتردّد صوتُه بنفسِ رنينِه، وبلهجته المصرية وهو يردّ على ندائي، خضر بن ماء السماء.. صورته الأولى والتي كنتُ أتأمّلها من خلال خصاص بابِ غرفتي، وهو يشعرُ بالخجل والارتباك.. صورته التي اسْتحضرتُها، أجدها أطولَ مِن الحقيقة، ووجهُه يبدو أشدّ نحافة، كانت عيني لم تبرحْ مكانها.. مستقرّة على الكلمة الأولى، وبدأتُ القراءة..»

- ٣ -

هنري جو أرنولد

« اليوم، جرى اتصالٌ بيني وبين جون بروست القاضي السابق في محكمة مجرمي الحرب التابعة للأمم المتحدة. قلت له: أنا هنا أولد مِن جديد.. أرى الحياةَ بعينيْن جديدتين، هنا القصف المتواصل، قصفٌ عنيف بلا رحمة، قتلنا وجرحنا.. نشرنا الموت والدمار في كلّ مكان.. طاردنا الإرهابيّين من شارعٍ لشارع.. من بيتٍ لبيت.. ومِن غرفةٍ لغرفة.

فجرَ اليوم، قمنا بعمليةِ مُداهمةٍ لمنازل عددٍ من الإرهابيّين، وصلنا إلى منطقة غرب بغداد.

اجتزْنا غابةً من النخيل، واعْتلينا ربوةً عالية.. أعددْنا مدافعنا، ومنصّات إطلاق الصواريخ في وقتٍ قياسي.. أكّد لنا النقيب لويس أوين قائدُ العملية أنّ السريّة والمفاجأة أهمُّ عناصر النجاح، تذكّروا جيدًا أنّ الإرهابيّ أخطرُ مخلوقٍ على الأرض.. لا تأخذْكم به رحمة أو شفقة، ويجبُ قتلُه ودفنُه أينما وجِد، وأشار إلى المنازل الواطئة أمامنا، واستكملَ حديثه في قرفٍ، في هذه الأكواخ القذرة يخطّط الإرهابيّون لقتلِ أهلنا في أمريكا..

كنّا قدِ اتّخذنا أماكننا. وللحظاتٍ لفّ الصمت المكان.. كلّ شيء كان يبدو نائمًا، حتى النخيلُ الذي كان ينتشر بكثافة، كان يستقرّ في سكون، وصدر الأمرُ فانفجر الصمتُ بدويّ مروّع فوْرَ انطلاق القذائف والصواريخ والطلقات الكاشفة حوّلت الليلَ إلى نهار، انتشرَ حريق في عددٍ من الأكواخ.. وارتفع لسانُ اللّهب. حاول بعض الأهالي الهرب؛ رجالٌ ونساء يحملون أطفالَهم ويهرولون في فزع.. لكنّ طلقات القنّاصة كانت تترصّدهم وتقضي عليهم.

مع أوّل ضوء، انتهتِ العملية.. وتوقّف القذف.. وبدأتْ عملية المُداهمة؛ هبط الجنودُ إلى المنازل التي سوِّيَت بالأرض، وكانت الحرائقُ تنتشر مثل بؤرِ الصّديد فوقَ الجلد المحترق، والجثثُ مُلقاة في بركٍ مِن الدماء، بينهم بعضُ الجرحى يصدر عنهم أنينٌ موجع تولّى عددٌ من الجنود إطلاقَ النار عليهم، كان بعضُهم يصرخ في فزع قبل أنْ ترديه الرصاصةُ ويلفظ آخرَ أنفاسه..

وأنا أقفُ وسط المذبحة.. أصابني الذّهول؛ فلم أصدّق ما يحدث. كانت الجثثُ لنساءٍ وأطفال والقليلِ من الرجال، وبدأت تتكشّف أمامي الحقيقة. وملأني الغضب، بدأ مع شكوك راحتْ تطردُ من عقلي أكذوبة «الحرب ضدّ الإرهاب» وتتجسّد مكانَها صورة الواقع الذي أقف عليه وأغوصُ فيه بكامل وعيي.. فهنا لا يوجد حديثٌ عن حقوق الإنسان سواء كانت حقوقًا طبيعية أو حقوقًا قانونية.. أبسطُ الحقوق هنا مُهْدرة، مبادئ العهدِ الأعظم وتشريعات حماية الفرد.. واتفاقيات جنيف، ليس لها وجود. أنا هنا يا سيدي

أولَدُ من جديد. أرى الحياةَ بعينينِ جديدتين بعيدًا عن تأثيرات «الميديا» التي تثقب الوعي، واللاوعي، والضمير. وتحوّل الإنسان إلى كائنٍ فارغ.. فاقدٍ للهوية، وللمعنى. استمعَ الرجلُ لي في هدوء، ثمّ قال:

– ما تقوله دَوّنه، وسنضمّ أوراقك إلى لجنةِ تحقيقٍ مُهمّتها تحرّي جميعَ الحقائق المتعلقة بهذه الحرب.

– وأنا على استعدادٍ أن أدلي بشهادتى أمام اللجنة.

واستدركتُ وأنا أحاولُ منعَ نفسي من الانفعال والتأثر والبكاء:

– المفارقةُ المفزعة يا سيد بروست. كانت اكتشاف القيادة أنّ المكان الذي أبدناه وأحْرقنا منازلَه ونخيله؛ لم يكن هو المكانَ المقصود. لقد حدث انحرافٌ بسيط على الخريطة أدّى إلى هذا الخطأ، خطأ بسيط أوْدَى بحياة العشرات...، سيدي أنا، أ..».

– ٤ –

روميساءُ الأمين

«أغلقت اليوميات.. ولفّني الصمت، وشعرت بنبضٍ صغير في أحشائي، تلمّسته بأصابعي وكأنّني أبحثُ عن رفيقٍ يقيني شرَّ الوحدة، وعاودتني صورة زوجي «خضر» وأنا أستسلمُ لغيبوبة النوم..

وأنا على أعتاب الغياب، جاءني الحلم الذي سيطرَ على مشاعري مُنذ سنوات، كنت أراني على صهوةِ جوادٍ أصيل ينطلق بي على جسرِ نهر دجلة، وطفلي الصغير يجلس أمامي، تحوّل في لحظة أخرى من الحلم.. وأصبح «خضر» ضمّني إليه وأنا أتأمّل وجهه المصقول، ثمّ بدأ القلبُ يرتجف، وشملني الخوف، ازدادت دقاتُ القلب حتى تحوّلت إلى طرقاتٍ سريعة متلاحقة. ومع تلاشي الحلم، وصل صوتُ ظلّ ينادي باسْمي حتى أفقتُ من نومي، وسمعت طَرقًا على الباب، انتفضت جالسةً مكاني. وصوتُ الطرقات يتواصل. هُرِعت إلى الباب، وسألت:

– مَن؟!

وجاءني صوتٌ لم يكن غريبًا على أذني في يومٍ من الأيام، انْفطر قلبي فوْر سماعه، وهاجت نفسي، وما إنْ فتحت البابً حتى وجدته أمامي مثلَ كائنٍ جاء من عصور سَحيقة بملابس رثّة ممزّقة، ووجهٍ مغطّى بشعرٍ كثيف، تأمّلت عينيه المنطفئتيْن ثمّ صرخت، وضمَمْته بين ذراعي، وقد اجتاحتني ثورةٌ عارمة من البكاء، وأنا أردّد: أخي حميد.

(٥)

إنّهم يسرقونَ الوطن

- ١ -

خضر بنٌ ماءِ السماء

«وأنا أتأهّب للقفزة الأخيرة للخروج من الدائرة، وصلني صوتٌ حادّ: قفْ!!!!!!!.

كان الصوتُ مصحوبًا بصوتٍ أحدثه شدّ مجموعةِ أجزاءِ بندقيةٍ آلية سريعة الطلقات. وقفت ورفعتُ يدي، وعلى الفور كنتُ محاصَرًا بخمسةِ وجوه ملثّمة بخرق سوداء، دارت حولي وعيونُهم تتفحّصني مثلَ كلاب شَرِهة تتأهّب للانقضاض على فريستها،

- ماذا تريدون؟!

- أنت أسيرٌ لدينا.

- ماذا تريدون؟!

- قتلَك.

وانهالتْ كعوبُ البنادق على عظامي، ومع ارتطامها المتوالي كنت أشعرُ بارتطام رأسي بالجدار الصلب، كانت الضرباتُ الثقيلة تفجر ينابيعَ البئر الأسود، وروميسة تجاهدُ في إحْكام الغطاء على فوّهة الانفجار دونَ جدوى، وسقط وسطَ بركةٍ من ماءٍ آسن، تلاشى كلّ شيء.

– ٢ –

حميدُ الأمين

حميد الذي كان يريد كلّ شيء، جاء مسلوبًا من كلّ شيء حتى الإرادة، والأخطرُ أنه جاء مسلوبًا من الرغبة في الحياة، وبدا وكأنّه سقطَ في تيهِ العجز واللامعنى.

قبل الغزو، كان يرفع شعارَه الخاص «حريّة العقل جذر الديمقراطية»، وتبنّى موقفًا فلسفيًّا. قام بعمليّة تفْكيك لكلّ ثوابت حداثته.. غمرته مصطلحاتُ السّريالية والتكعيبيّة، وهو على مشارف ما بعدَ الحداثة انقضّ عليه الغزو، وبدأ يتصرّف وكأنه مسئولٌ عن المجتمع.. عن الدولةِ التي أخذها الحزبُ رهينة. وفوض أمرِ التصرف فيها إلى الرئيس القائد المُلهم صدام حسين!! الإشكالية التي راهنَ على حلّها لخّصَها في شعار آخر، الحرية قبل الوجود. وصدم الأسرة بآراء اعتبرها الأبُ سعيدُ الأمين آراءً شاذّة ستودي به إلى السجن.. وربّما الإعدام، ويستشهدُ بسيرة أخيه سعدِ الأمين الصحفي المشهور، وما جرته ..»طرقعات الفم» عليه وعلى الأسرة من كوارث..

قال ذاتَ ليلة:

- لا سلطة إلّا سلطة العقل.

أسرعَ الأبُ بتكميم فمه، وضغطَ بأصابعه ليمنعه من مواصلة حديثه وقال له:

- ارحمْ نفسَك وارحمنا، ولا تتحدّث في السياسة.

قالت روميساء:

- حميدُ يتحدّث في سلطة الثقافة.

قالت أمّ حكيم:

- كلمةُ سلطة هذه لا تقتربْ منها؛ البابُ الذي يأتي منه الريح سدَّه واسترح، يقول «نافذ» متهكمًا:

- أمّك عندها حقّ.

كانت حوارات «حميد» تجذب شقيقتَه.. كان مثلَها الأعلى، والمُلهِم، شخصيتُه وآراؤه كانت تسحرها، وهي تعدّ رسالة الماجستير بعنوان «المجتمع والإنسان كنَصّ، رؤية نفسية ثقافية»، هيْمنت على عقلها كلّ مقولات أخيها. كان يؤكّد على وضع ضوابطَ لأي سلطةٍ، حتى سلطة العقل، رغم سعيه الدءوب نحو الحقيقة.

تتذكّر روميساء تلك الليلةَ البعيدة عندما اصطحبها إلى السينما، وشاهدا فيلمًا يوغسلافيًّا عن معركة نيرتيفا، كان يحكي عن قوات المقاومة بقيادة تيتو، ومحاولة الهروب من حصار القوات الألمانية والإيطالية ووحْدات من اليوغسلاف المُتعاونين معهم، كانت القواتُ المحاصرة ستة أضعاف. ورغم ذلك تمكّنت «المقاومة» مِن بناءِ جسرٍ، وعبرت النهر المغطّى بالثلوج.. وبصحبتها الجرحى ومرضى التيفوس.. والسكان المدنيّين.

خرجا معًا إلى شاطئ نهر دجلة، وترك المجالَ لدموعه الحبيسة، انفجر باكيًا وهو يتحدّث عن الدلالة العميقة لحصار سراييفو. كان يتحدّث وصورةُ البوسنيّين وهُمْ شبه هياكل عظميّة وراء أسلاك معسكرات الأسرى، والنساءُ يحمَلْن في سيارات تعبر بهنّ من النار إلى المجهول، والأطفالُ المرضى راقدون على خرق بالية. كانت الصورُ تطارده وهو يقول لها:

– الحضارةُ الغربية اليوم سقطت، وأنا أدوسها بقدمي.

قالت له:

– يقولون إنّ حرب الصرب والبوسنة سوف تتحوّل إلى حربٍ أكبرَ وأوسع، ويعيدُ التاريخ نفسَه كما حدث في الحرب العالمية الأولى.

ردّ ساخرًا: وتمتدّ إلى هنا مثلًا؟!!

واستدرك.. وهو يتنهّد تنهيدةً حارّة:

- لا أعتقد؛ لأنّ بارونات القتل وعباقرةَ الشرّ والجريمة المنظمة.. آكلي لحوم البشر.. تجارَ الموت والسلاح؛ يلعبونها بحرفيّة عالية، إنهم لن يسمحوا بذلك.

ثمّ سرح بخياله، وقال:

- ولم لا!؟ مِن المُمكن أن تمتدّ الحرب إلى هنا.. عندك حقّ.. حصارُ سراييفو وحصارُ العراق أكبرُ دليل على الاستعداد لها.

ـ ٣ ـ

روميساءُ الأمين

كتبتْ رسالةً إلى أختها «روح»..

«اليوم، يرقد «حميد» في غرفتِه بعد سنتيْن من الغياب، لقد رجع من السّجن حطامَ إنسان. ولكنّه سيستردّ عافيته شيئًا فشيئًا. هل تعرفين أنّ الشيء الوحيد الذي أفسد فرحتي بعودته هو غيابُ خضر، لقد انقطعتْ أخباره، ولا أعرف مصيره..»

صباح اليوم التالي، دلفتْ إلى غرفة حميد، خطتْ على أطراف أصابعها.. واقتربت منه وراحت تتأمّله. كان غايةً في القذارة، حاولت إقناعَه بالاستحمام وتغْيير ملابسه. فقال لها: أنام. وما إنِ استلقى حتى وصلَها صوتُ شخيره. وواصل النومَ حتى الليل. وفوجئت به- وكانت تجلسُ إلى الكمبيوتر تنهي رسالتها إلى أختها- يخرج من غرفته، ويقول باقتضاب: أكل. أسرعتْ بإعداد وجبةٍ سريعة له. وهي تحكي له ما آلت إليه الأسرة، وهو يأكلُ بشراهة، جلست قبالته وقالت:

- حميد. أنا تزوّجت خضر. خضر الذي كان يعملُ في مطعم الأمين.

كان يواصل الأكلَ ويستمعُ إليها في صمت. توقّف للحظة وكأنّه لم يسمع شيئًا. استدركتْ تقول: إنّ «خضر» فرض نفسَه كموضوع، موضوع حياتها الواعي، النصّ الذي جاءت الحربُ فحوّلتْه إلى شريك حياة. والآن اقْتحمها، اقتربَ منها أكثر ممّا ينبغي.. فلم تعدْ تراه بصورةٍ واضحة. لم تعدْ تراه بالطريقة التي كان عليها أنْ تراه بها لتكمل دراستها عنه، وبعد الزواج لم يعدْ نموذجًا مثاليًّا، بل صار واقعًا حياتيًّا، وفقدت كلّ آليات الوصول إلى منطقة الأسرار الغنية.. منطقة اللاوعي،

وهي تفتح وعْيها.. وتواصل حديثها دونَ توقّف، وكأنها تعوّض ساعات الصمت الطويلة. كانت تتأمّل شقيقها وهو يعبث بشعْرِ لحيته الكثيف. مسّ وعيها للحظة. إنّه الآن يستقرّ في النقطة المثالية، النقطة التي جعلتها جزءًا من النّص، رغم وعيها وإدراكها أنّها بعد الغزو أهملت كلّ النصوص. وها هو يأتي ويمسكُ بتلابيبها مرة أخرى، وعاودت قراءة بعضِ عناوينها القديمة لتحدّد موقفها النفسي لذاتها، ونموذج فرويد يفرضُ نفسه؛ أنا أعلى، أنا، هو. وهي تتحدّث كانت تجتاز ذاتها المباشرة التي تصلها بالواقع إلى ذاتٍ أخرى عميقة تبدو مثل نفقٍ مُظلمٍ في نهايته يستقرّ ضوءٌ خافت يقاوم الظلام، وقطع حديثَها شخيرُ حميد؛ فقد نامَ على مقعده.

« اليوم، مرّت عشرةُ أيام على عودة حميد، وقد بدأ يستجيبُ لحديثي معه؛ حلق ذقنَه، وغيّر ملابسه، وعاد أمامي بهيئته التي أعرفها.. ولكنه كان نحيفًا، وفي وقفته استكانةٌ وشعورٌ بالذلّ والانكسار. عندما بدأ يحكي عن مأساتِه في السجن الذي أعتبرُه محرقةً جديدة من إبداعات الحضارة الغربية. كانت تتلاشى جذوةُ الحياة أمامه.. وأيقنت أنّ فترة النقاهة سوف تستغرق وقتًا. بعدها سوف يعود كما كان، وكما كنتُ أعرفه؛ فكلماته التي كانت في البدايةِ مُقتضبة وخاليةً من إحساسه بالزمن؛ بدأت تستعيدُ حياتها وتقاوم حقلَ المأساة.. حقل الألغام الذي فجّرها من المعنى.

في المساء، قدّمت له كوبًا من الحليب، تناوله ثمّ سألني:

- أين خضر؟

شعرت بدبيبِ حيوانٍ رخْو يزحفُ على وجهي وأنا أقول:

- لا أعرف.

قال بشفتيْن شبه مُغلقتيْن:

- قُتل!؟

كان عليّ أنْ أهزم رغبتي في البكاء، وأن لا تسقط دموعي، ولا أرى الحياة بذاتي المباشرة، فابتلعتُ انفعالي ليسقط في الذاتِ العميقة، في النّفقِ المظلم. كنت كمَن تستسلمُ لموجةٍ عاتية ولا تقاومها حتى تستقرّ، واستقرّت، والأنا

على بابِ صراع وجودي حادّ.. كنت أبحثُ عن قرار داخل الذاتِ العميقة.. داخل النفق المظلم.. هناك في نهايته عند نقطة الضوء الخافتة، وصل رنينُ الموبايل، انتفضَ على أثره حميد.

فتحت الجهاز:

- ألو..

- أنتِ زوجةُ المواطن خضر؟

أجبتُ: نعم.

قال الصوتُ مسترسلًا:

- إنّه مصابٌ في مستشفى، اكتبي العنوان.

أغلقت الموبايل، وقلتُ لحميد وقد انفجرَ داخل النفق إعصارٌ من الدموع: خضر حيّ.. حيّ.. حي!!!

– ٤ –

ماري أرنولد

« اليومَ تحدّد موعدُ السفر إلى العراق.. الليلة تنهي يومًا طويلًا بدا كأنّه لن ينتهي. أعددتُ حقيبتي، ووضعت على عيني المُجهدتين بعضَ الكريمات، واستلقيتُ على السرير، واستسلمتُ لحالةٍ من الهدوء والسلام للحظات. كنت أحاولُ حماية نفسي من السقوط نحو السفح، وخُيّل لي أنّ الموسيقى بدأت عزفها، كانت عصا المايسترو ترسم في الفراغ أيْقونات السعادة واللّذة، ومع خطواتي بدأت الأرض تهتزّ، ودراما العرض تقتربُ من الاكتمال. وفجأة، توقّف كلّ شيء، ووصل الإجهادُ غايتَه من الألم والتمزّق، قبضت بكلّ جوارحي على حالةٍ من التوازن، وقاومت شعورَ الوحدة والقهر والاستلاب، ولكنّ القوة كانت كاسحة.

وأنا أفتحُ عيني، وصلني اتصالٌ من «جو»، وطلبَ منّي أن أضع الكاميرا لأتّصل به على شبكة الإنترنت. وقال في لهفة: ماري، اشتقت إليكِ.

صورتُه بدتْ على الشاشة مثلَ نجم سينمائي جميل، كان يحبّ كلارك جيبل. قلت له ذاتَ يوم وكنّا في شرفة فندق تطلّ على شلالات نياجرا:

- أنا لا أحبّ أحدًا سواك.

وقفَ أمامي، تأمّلَني في خشوع وقال:

- لن يفرّق بيننا شيء.

- حتى الموت..

ضمّني إليه. وأنا أحتمي بجسده الدافئ، غمغمت مُردّدة:

- حتى الموت..

قلت له:

- غدًا، سأسافر ضمنَ بعثةٍ للصليب الأحمر إلى العراق.

قال راجيًا:

- فكّري.. توجد فرصةٌ وحيدة للنجاة.

- سوف أعود بصحبة ابني، وأقيم له جنازةً لائقة.

امْتقعتْ ملامح «جو» وقال:

- لا تكوني قاسية يا ماري.

الحزنُ المخبوء في قلبي كان ينتظر بزوغَ مثل هذه الكلمة، لا تكوني قاسيةً يا ماري، لينفجر ويعيدني إلى نقطة الصفر. قاومت زحفَ الغضب وهو يتمدّد في كياني كدبيب النمل، وقلتُ:

- أرجوك يا جو..

غمغمَ معتذرًا: آسف!!!!!

– ٥ –

روميساءُ الأمين

«جريتُ مُهرولةً في طرقات المستشفى، يتْبعني «حميد» مثلَ طفلي الصغير، وكأنّني أهربُ من أسوأ الخواطر، وأنثرُ من أمام عيني صورَ المصابين وقد أكلتْ أطرافُهم وشوّهت أجسادهم. كنت أبحثُ عن نقطة الضوء لأقاوم وأقفَ ضدّ القلق القاسي، وأصونَ نفسي من الانفجار لو مـ..، أقطع الخاطرَ اللعين وأنا أقول لنفسي: خضر حي. قفزت أمام البابِ ورأيتُه، نعم رأيتُه، إنه هو، خضر...

كان مستلقيًا على سريره، اندفعتُ نحوه، تأمّلت عينيْه المستكينتين وانْحنيتُ عليه وضمَمْته إلى صدري، وأنا أردّد وسطَ الدموع التي لم تتوقّف: حبيبي، ماذا حدث؟! تكلّم.. ماذا جرى؟ هل أنت سليم؟ كيف أصِبْت؟ وأين؟ ومتى؟. وهو يردّد: اطّمّني.

عندما هدأتِ الخواطرُ عرفت أنّ إصابتَه كانت نتيجةَ تعرّضه لحادثِ سطو مسلّح، واعتدى عليه اللصوص، وأخذوا منه الشاحنة. قلت له وأنا أشملُه بحبّي وامْتناني لعودته لي: المهمّ أنتَ. تذكّرت «حميد» فأشرت إليه، وقلت لأكملَ فرحتي: حميد.. حميد، حميد!!

فوجئت بخضر يهمّ واقفًا، ويضمّ «حميد» بين ذراعيه ويقول:

- لم أحتملْ فكرة أنّك غير حي.

كانت إصابةُ «خضر» كسرَ أحدِ ضلوعه، وقطعًا في أحدِ أربطة الساق، وعدّةَ جروح سطحيّة في الرأس، وانتهى من العلاج.. وعاد معنا إلى البيت. في نفس الليلة، اتّصلت بماري وأخبرتها- وأنا في قمة السعادة- بعودة خضر.

- ٦ -

خضر بنّ ماءِ السّماء

«كانت روميساء تستمعُ لي وهي هائمة.. كانت تحتويني بعيْنيها.. وقد ملأتها الحادثةُ برفضٍ حادّ لرغبتي في شراء شاحنةٍ جديدة، قالت: عدْ إلى المطعم، كلّ طرق العراق اليوم طرقٌ للموت؛ بغداد، الموصل، كركوك، الرّمادي، الأنبار. قاطعتها، وضممتُ يديها الباردتين المتوترتيْن، وقلت:

- روميسة، الشاحنة سُرقت منّي، ولن أرتاح حتى أستردّها.

- ذهبت بشَرِّها.

- لم نجنِ منها إلّا الخير.

- حبيبي، لم تُسْرق الشاحنة فقط، كلّ العراق تُسْرق.

التفتُّ إلى حميد، كان يجلس أمام التليفزيون مُنشغلًا بمتابعة نشرات الأخبار..

قلتُ لزوجتي:

- لينهبونَ ثروةَ البلد، ولكنّهم لن يسرقوا الجغرافيا والتاريخ..

ردّت في غيظ: أنتَ واهم، فلسطين أمامَك سرقوها، والدّوْر علينا.

قاطعني صراخُ حميد: أبطال.. أبطال.. أبطال!!!

هُرِعت إليه، ورأيتُ على الشاشة انفجارًا مدوّيًا، وصوتُ المذيعة يقول: أفسدَ هجومُ الموصل الأخير، والذي أدّى إلى مقتل ما يزيدُ على عشرين أمريكيًّا، مُعظمهم من الجنود؛ احتفالاتِ الرئيس الأمريكي جورج بوش بأعيادِ الميلاد ورأس السنة...

كنتُ ألمح حطامَ شاحنتي، والنار تأتي عليها، ووجدت نفسي أتنهّد في راحة، وأردّد مع حميد: أبطال..

(٦)

إنّهم يقتلونَ البشر [1]

- ١ -

خضر بنّ ماء السّماء

«فوجئتْ روميساء بشاحنةٍ جديدة تقفُ أمام البيت، فارْتجف قلبُها وتسلّل إليها خوفٌ غريزي وهي تسألني: خضر!

كنتُ أعدّ نفسي للخروج، وضعت كوبَ الشاي على المائدة، وانشغلتُ بربْط الحذاء.

اعترضت طريقي، وواصلت في إلحاح:

- لماذا تصرّ على قتلي؟!

- ....

- الخوفُ والقلق الذي يقبضُ عليّ وأنت تقودُ الشاحنة يقتلني.

قلتُ لأطمئنَها:

---

(١) من وحى رواية «إنهم يقتلون الجياد» للكاتب الأمريكي الكبير أرنست هيمنجوى ..

– مجرّد هواجس. حبيبتي، الموتُ قدر مَكتوب.

أشاحتْ بوجهها، فتعلّقت بمعصمها، وقلتُ في حنان:

– ادعُ لي بالسلامة.

حاصرتني بنظرةٍ عميقة، وقالت بلهجةِ اتّهام:

– أنت إنسانٌ غير طبيعي.

– .....

وأكّدت في حدّة، غير طبيعي فعلًا، جلست إلى المائدة، وأطرقت بعيني وأنا أقول:

– روميسة، لا بدّ أن أعملَ لكي نعيش.. حالةُ البلد أنتِ تعرفينها، المطعم لا يفتح بيتًا.

قالت وهي تكظمُ دموعَها:

– لو متّ.. ما مصيري؟ ومصير ابنك الذي لم يولَدْ؟

– «حميد» موجود.

– حميد؟! أين حميد؟!

جلست قبالتي وقالت:

- أنا عندي حلّ.. حلّ أخير.

أرهفتُ السمع إليها:

- تأخذني ونسافر إلى مصر.

تفاقمتْ حالة الذّعر فجأة، استحوذت على كياني وأصابتني بقشعريرة. اتّسعت مثل بركةِ ماء وأنا أَحْملق في وجْهها. كادت تنفجرُ من فمي كلمة: لا.. عميقةً عريضةً قاطعة. ولكنّني لم أنطق بها، وواصلتْ هي حديثَها الذي لم يصلني منه حرف. كنت أرى الشفاه تتحرّك، وأنا أحدقُ في عينيها.. وقدْ أطلّ منهما نفسُ البريق القديم الذي كان فيما مضى يحاصرني، واليوم يقبضُ عليّ الحصار، يغلق أبوابَ ونوافذ الهروب؛ فأحاول السباحةَ في الهواء مثل سحابةٍ بيضاء، أو أخطو إلى

الأمامِ لأصلَ إلى محيط الدائرة.. أمزّق الأسلاك الشائكة، أعْبُرها وأخرج إلى العالمِ الآن. في هذه اللحظة، تدعوني للعودة إلى مصر.. فكّرت في الردّ على اقتراحها قائلًا: عندما تنتهي الحرب. ولكنّني كنت أدرك أنّها كلمةٌ للهروب والتّنصّل من الحلّ الذي اعتبرتُه الأخير. واجهتني - بوجْهٍ عامر - بالشكوك، كانت تضغطُ على شفتيها المرتعشتيْن، العاجزتيْن، والملوّثتين بمرارة القرفِ منّي.. مِن هذا الرجل الذي اقتحمَ حياتَها، ولولا الغزو الأمريكي الذي قهر البلاد والعباد؛ ما كان لها أنْ تتزوّجني.. فانفجرَ الغيظ وهويتُ بقبضتي على المائدة، وقلت ثائرًا:

- أنا لست ابنَ زنا، أنا معلومُ النّسب.

فوجئتُ بحميد يضحكُ في هيستريا، ألقيتُ نظرةً مشحونة بالضيق، وانطلقتُ خارجًا..

وأنا أسرعُ إلى الشاحنة الجديدة، لحقتْ بي وهي تنادي:

- خضر.

وقفت أمامي، وتعلّقت بي، وقالت:

- سامحني.. لم أقصد ما فهمتَ، أعصابي مُنْهكة.

ضمَمْتها إلى صدري، وقلت:

- لا إلهَ إلّا الله.

- سيدنا محمد رسول الله.

-٢-

روميساءُ الأمين

نفسُ البريق القديم الذي كان يراه «خضر» يطلّ من عيني زوجته، كانت تراه هي داخلَ ذاتها العميقة، وقد حاولت مرارًا الإمساكَ به، والقبضَ على جذوةِ الحقيقة، حقيقة حياتها ووجودها.. حقيقة «خضر»، وحقيقة العالم والحياة، وحقيقة بلدها العراق التي تدفعها جحافلُ التتار الجُدد إلى لحظةٍ غائمة خارجَ التاريخ، تسقطها داخل نفقٍ عميق مُظلم. حاولت حلَّ الطلاسم.. الصور المجازية لحلمها القديم، كانت تطاردُها داخل الذاكرة، فماذا تعني؟ هل «خضر» هو الجوادُ الأصيل، أمْ وجه الفارس المصقول، أمْ رسالة الماجستير، أمِ المعرفةُ التي تطوّق للقبض عليها بعقلها لتتمكّن من تفسيرِ ما مرّ بها من أَحداث؟! وهل وجودُ الجسر دلالةٌ على اجتيازها لهذه المرحلة البَغيضة من حياتها؟ والماء الذي ينساب هو الحياةُ التي ستقاوم الغزوَ، وتنتصر في النهاية!؟

«فيضٌ مِن الكلمات والمعاني التي كانت تُحدِثُ في نفسي دويًّا، تركت «حميد» يعدّ إفطاره، ودلفت إلى غرفتي، وأغلقتها.. واستلقيت على السرير، وما إنْ أغمضت عيني حتى شعرت أنني أنزلقُ إلى قرار البئر، لحظاتٌ وانتشلني رنينُ الموبايل:

- ماري!!

- أنا الآن أستقلّ الطائرة من القاعدة الجوية الأمريكية.

- إذًا، قريبًا سنلتقي.

أغلقت الموبايل، وتناولت يوميّات هنري أرنولد...».

- ٣ -

هنري جو أرنولد

«......، في ساعةٍ مبكّرة، جاءني شاب عراقي لحظةَ كنتُ مشغولًا بارتداء ملابس الميدان، وقال إنّه يراقبني منذ فترة، وعندما طفتِ الشكوكُ على ملامحي، قال:

- ستشاركني في مفاوضة جماعةٍ إرهابية للإفراج عنْ رهينة،

لم أخفِ انْزعاجي، وتفحّصت الشابّ العراقي بكثيرٍ من الشكّ؛ فمثلُ هذا الأمر لا يُناقَش عن طريق حديثٍ عابر، فأقلّ قواعد سريّة التقاليد العسكرية تتنافَى مع ذلك!! كان يجبُ أن يخبرني به الرئيسُ المباشر نقيب لويس أوين، ثمّ مع القائد الأعلى الميجور رتشارد راسل.. ليوقّع على خطة الإفراج عن الرهينة.

انصرف الشابُّ كما جاء، وأنا أتناول فطوري تقدّم منّي أحد جنود الحراسة وقال: كابتن أوين ينتظرُك في مكتبه.

لويس أوين كان ذا شخصيةٍ مُخادعة، مفتوح الشهية دومًا للقسوة والعنف. وكثيرًا ما كان يصرّح بأنّه يرحّب بكراهية أيّ إنسان في العالم، ولم

أكنْ متحيّزًا على نحْوٍ غيْر مبرَّر أو أعبّر بأسلوبٍ مُنحرف عن حقيقةِ جوهر الرجل الذي التقيتُ به هذا الصباح. والذي- على ما يبدو- لم يكنِ الوقتُ هو أفضلَ ساعات نهاره، قال وهو يشملني بنظرةٍ باردة:

- لستُ مسئولًا عن اختيارك لهذه المهمّة.

قلتُ مُتجاهلًا: أيّة مهمّة؟!

- المترجمُ العراقي أخبرك بها.

واستدرك:

- ملفّك المليء بالمخالفات؛ مسئولٌ عن اختيارك.

كلمةُ الرجل صدمتني حقًّا. صدمتني نظرةُ الاتهام واللّهجة التي تحدّث بها. شعرت أنّ الرجل يترصّدني، وينتظر الفرصةَ لتوريطي في مشكلةٍ لا أقدر على الخروج منها. وكانَ لبقيّة حواري معه دليلٌ على شكوكي.

ضغط على «الكي بورد» فظهرت على شاشة الكمبيوتر صورةُ الرهينة المختطفَة.. إيرنيا بوليادورو. ثمّ واصل حديثَه:

- لم أجدْ ضمنَ جنودي مَن يتعاطف مع الإرهابيّين غيرك.

شعرتُ بمسئوليّتي في الدفاع عن نفسي، ودحْضِ اتهامه؛ فقلت:

- أنا لا أتعاطفُ مع المُجرمين القتلة.

قال باقتضاب:

- لا تقاطعني..

وأشارَ إلى صورة الرهينة، وقال:

- صحفيّة إيطالية لم تتّبع التعليمات. الإرهابيّون اختطفوها.. وطلبوا التفاوضَ لإطلاق سراحها.

وناولني «فايل» وهو يقول:

- ملفّ العملية معك. تصرّف.

واستدار وهو يشيحُ بيده منهيًا الحديث، فقلت وأنا أشعرُ بالإهانة:

- طلبُ مقابلةَ الميجور رتشارد راسل.

لم يردّ الرجل. وقفتُ للحظة، ثمّ انصرفت. وما أن فتحتُ الباب حتى فوجئت بالمترجمِ العراقي يقفُ في انتظاري. اصطحبني إلى كافيتريا تحتلّ الدور الأرضي من القاعدة العسكرية، وقال لي:

- موعدُنا مع الميجور رتشارد راسل الساعة الثانية ظهرًا.

- ما دورُك في هذه العملية؟!

- حلقةُ وصل.

- هل تعرفُهم؟

– جلستُ إليهم مرّتين.

– ماذا يريدون؟

– لم يفصحوا عنِ الهدف من عملية الاختطاف، المهمّ ماذا نريد نحنُ.

أطرقتُ وأنا أردّد السؤال في حيرة، ماذا نريد؟! قال وهو يفتح علبةَ عصير:

– القيادة ستحدّد ماذا تريدُ من الخاطفين.

تفحّصته مليًّا، ثمّ سألته:

– لماذا تتعاون معنا.. ونحن جنودُ احتلال؟!

تلفّت حوله، وقال باقتضاب:

– أنا أمارسُ عملي.

سألتُه: ما اسمك؟

– نافذ الأمين.

***

توقّفت عن القراءة، واقتحمتها صورةُ الجوالين، وفيهما أشلاءُ «نافذ» وأبيه، يومَ حملهما «خضر». وانطلقتُ معه إلى المقابر، وواصلتُ البكاء. وكان الحريقُ الذي أتى على أبيها وأخيها قد أسقطَ قلبها في الجحيم، وطاردتْها

كوابيسُ شريرة. كانت ترى الجوادَ الأصيل وهو يقتحم حقلَ النيران.. وهو يركضُ وسطَ ألسنة اللّهب. كان ينفجرُ صهيلُه، ويتّسع اللّهب حتى يبتلعه، وعندما يختفي تصرخ وينتفضُ جسدها، وتنخرطُ في بكاءٍ هيستيري، وتقفز إلى «خضر» تعانقه وتضغطُ عليه. في هذه الأيام، وصلتْ إلى قمّة ضعفها. قال لها «خضر» وهو يتخلّص من حصار ذراعيها حول عنقه: روميسة، تتزوّجينني؟

– ....

تذكارات صغيرة، ووريقاتُ وردةٍ ذابلة عبقتْ ليلة زفافها. أرادت أن تهربَ من صدمةِ المفارقة، فحلمُ أمّها بليلة زفافٍ لوحيدتها كانت ترسم تفاصيلَه موشّاة بالضحكات والغناء، ولكن الليلة كانت مُظلمةً مملوءة بالدّموع. عادت إلى اليوميّات فصدمها للمرّة الثانية اسمُ أخيها بحروفه الإنجليزية) (Nafez، وبدأ السؤال يتكوّن في رأسِها وهي تواصل قراءة اليوميّات، وصوت «نافذ» يقطع عليها تركيزَها.. وهو يردّد شعارات الثورة الجوفاء، يجب أن لا نقبلَ محاولة كائنٍ مَن كان أن يضع نفسَه فوق الثورةِ والشعب والحزب؛ لأنّهم قيمٌ عُليَا فوقَنا جميعًا.. فوقنا جميعًا.. فوقنا جميعًا.

صمّت أذنيها، وولّتْ هاربةً إلى بهْو المنزل، تهالكتْ على أوّل مقعد صادفها، والتفتَتْ إلى «حميد» الذي كان مشغولًا بمشاهدة فيلم رومانسي قديم، تابعتِ الفيلم حتى أخذتها أحداثُه..

– ٤ –

ماري أرنولد

«سكنتِ الطائرة مثل تميمةِ كائنٍ خرافي، ونظرتُ إليها فامتلأ قلبي بخوفٍ بارد.. ناعم. لأوّل مرةٍ أشعر بالخوف من رحلتي إلى بلدٍ ينتشر فيه الإرهاب مثل ذرّات الهواء، قطعتُ آلافَ الأميال لأقفَ على حقيقة النهاية، وأعرف هل ابني هنري قُتل؟! أمْ فُقد؟ أم...

كانت الهواجسُ تتسلّل إلى قلبي فتشملني رعشةٌ وأنا أخطو وسطَ وفدِ اللّجنة الدولية للصليب الأحمر. على مدرّج الطائرة، قبض الإجهادُ بمخالبه، وبدأ يمزّق جسدي ويكسر عظامي، وأنا أصعدُ السلم كدتُ أسقط لولا أحد أعضاء الوفد الذي مدّ يدَه في الوقت المناسب. تحاملتُ على نفسي حتى وصلت إلى مقعدي، ولم أنتبه لَمن يجلس إلى جواري. كنت ألتقطُ أنفاسي في صعوبة، فقد كانت لحظةُ المخاض المعتادة تخترق كياني، لكن في هذه المرّة كانت آلامُها فوق الاحتمال مثلَ الولادةِ المتعثّرة، وسيطرَ عليّ ضعفٌ قاتل وأنا أحاول– بما بقي لي من قدرة– عبورَ لحظةِ الموت إلى الحياة، وموسيقى العرض جاءت مَخنوقةً تتلوّى مثل أفْعوان يلفظُ أنفاسه، أغمضتُ عيني وغبتُ عن الوعي. وعندما أفقتُ كانت الطائرة قدِ ارتفعت في الفضاء. وقال لي زميلُ الرحلة الجالس إلى جواري:

– بالتأكيد أنتَ عضو جديد.

– فعلًا منذ أواخر الستينيّات.

اعتبرَ الرجلُ ما قلتُه مزْحةً؛ فابتسم. ولكنني كنت أتحدّث بجديّة، فلم أنتبهُ لحظتها أنّ هناك فارقًا زمنيًّا كبيرًا، قرنٌ من الأحداث الصاخبة، وبحثٌ غير جادٍّ عنْ سلام لم يأت. قلتُ له:

– الحقيقة التي خرجت بها من تجربتي الخاصة هي أنّه لا يوجد مَن يهمّه سلام حقيقي.

– أوافقك. ولكنْ يحدث ذلك في حالاتٍ خاصة.

استكملتُ كلماتي:

– كلُّهم يسعون وراءَ حربٍ أخيرة فاصلة. بعدها يسودُ السلام، وهذا لن يحدثَ لأنّ ما يقولونه عبث، فالحربُ لا تولّد إلّا حربًا.

ارتفعت يدي بطريقةٍ لا إرادية، وطرقت بكعب حذائي، كنت قدِ اجتزت مخاوفي، وشعرتُ بالساحة أمامي مسرحًا مهيّئًا لبدء العرض. وبدأت رقصتي.. كنت أقودُ مظاهرةً للتنديد بالحرب، ونفس الوجوه القديمة هي هي، ورأيت وجهَ جو أرنولد. كم كان جميلًا ورائعًا وصادقًا وهو يردّد شعارَه، لا للحرب. منذ أواخر الستينيّات– وحتى الآن– ونفس الوجوه والشعارات، ونفسُ كاميرات التليفزيون التي تنقلُ الحروب ومظاهرات

التّنديد بها إلى العالم.. وكأنّها لم تبرحْ ساحات القتال، ولم تبرحِ الشارع، غارقةً وسط الحشود.. وستظلّ...

التفت الرجل، وألقى نظرةً عبر النافذة، ثمّ نظرَ في ساعته وقال:

– نحن الآن نحلّق فوق الأرض العراقية.

سألته: ما اسمك؟

– شارل.

وسرحتُ بخيالي وأنا أقول:

– ابني هنري كان جميلًا كالملاك.

– آسف. يبدو أنّك تفتقدين هنري..

وواصلَ حديثَه، قال إنّه أمريكي يهودي، فرّتْ أسرتُه من ألمانيا هربًا من الهولوكوست، وظلّ أبوه حتى قبل وفاتِه دائمَ الحديث عنْ مجازر اليهود، وأثّر ذلك في طريقةِ تفكيره؛ فأودعَ في مصحّة نفسية. كانت الإبادةُ مستمرّةً ضدّ اليهود في جميع أنحاء أوروبا.

سرحَ ذهني والطائرةُ تنطلق في الأجواء العراقية، حاول الرجلُ جذبَ انتباهي، فقال بصوتٍ مؤثّر:

- مِن المفارقات أنّني تلقّيت دروسي في الإغاثة في معسكر «برج البراجنة» الفلسطيني. هذا الشعب الذي دأبَتِ الدعاية الغربية على إنكار وجودِه، وجيش الدفاع يواصلُ ذبحَ الآلاف وطردَ الملايين منه.

فجأة، اهتزّت الطائرة، ثمّ مالتْ على جنبيْها في حدّة، فتبعثر أعضاءُ الوفد بين الكراسي وأسفلها، وحدثَ انفجارٌ غطّى على الصراخ المُرعب، ثمّ بدأت تنزلقُ بنا في الهواء، وارتطمَ رأسي بجسمٍ صلب؛ فلمْ أدرِ بشيء.

– ٥ –

خضر بنُّ ماءِ السّماء

في الطريق إلى الحبانية، كان الموعد الذي انْتظره «خضر» فلمْ ينسَ للحظةٍ أنّ التنظيم سيعاودُ الاتصال به. وحدثَ ذلك بعد شهرٍ من استلامِ الشاحنة، قبْلَها وصله تليفونٌ أشار عليه بالانتظار عند مطعم الأمين يومَ الأحد الساعة العاشرة، وذهب في الموعد فوجدَ في انتظاره فتاةً فائقة الجمال، تقدّمت منه، وقالت:

– أنت خضر؟

تشكّك «خضر» في الموقف، وتردّد للحظة...

فانفجرتِ الفتاةُ ضاحكة، وقالت وهي تُعطيه مظروفًا صغيرًا:

– المكافأة.

وأسرعتْ بالانصراف، فتحَ المظروف؛ فوجد قصاصةً صغيرة مكتوبٌ عليها.. اذهبْ إلى شارع الرشيد الآن.

أوقف تاكسيًا، وأشار للسائق:

– شارع الرشيد.

عاود التاكسي السير، ووصله صوتُ السائق:

- أهلًا يا أخّ خضر.

التفتَ إلى وجْه السائق؛ فوجد قائدَ التنظيم وهو يختم كلماتِه القليلة:

- سنتناول الغداء معًا.

«بعد ساعتين، وصلنا إلى أطلالِ حيّ على أطراف بغداد. واصطحبني الرجلُ إلى بيت، وقبل الدخولِ أشار إلى البيوت المهدّمة. وعددٌ مِن الشباب يهيّئون بعضَ الغرف وسطَ الأنقاض، وقال لي:

- ثلاثة آلف قنبلة بي ٥٢ (B52)، ألقيت على هذه القرية لقتلِ أخي الشهيد «أبو كارم».

دخلنا غرفةً خالية من أيّ أثاث، فوجدت مَن ناداهم القائدُ بالإخوة. كانوا يجلسون على حشايا يتحدّثون، همّوا لاستقبالي في حفاوة، كانت الوجوه قد ألفَتْ بعضها.. فقد سبق رؤيتهم مِن قبل..

ونحنُ نتناول غداءنا، قال القائد وهو يشير إلى عددٍ من الشباب:

- الذئابُ التي كسرت ضلوعَك.

قال أحدُهم معتذرًا: كانت أوامر.

تردّدتْ على الذاكرة كلمةُ قفْ.. وصوتُ مجموعةِ أجزاء البندقية الآلية سريعةِ الطلقات، وقد استوعبتُ نصفَ الحقيقة التي أكملها القائد:

– عملية السطو المسلح كانت لا بدّ أنْ تبدو حقيقية. ولكنّ هذا لم يمنعْ أنّك مراقَب.

قلتُ منزعجًا: مِمّن؟!

– يوجد عددٌ ضخم مِن المحاطات السريّة مُزوّدة بمعدّات تنصّتٍ ذات تِقْنيات فائقة.. ترصد الاتصالاتِ المتبادلةَ عبْر الأقمار الصناعية وشبكاتِ الاتصالات الأرضية، وغيرها من اتصالاتٍ لاسلكية.

تحوّل انزعاجي إلى رعبٍ هائل، وشعرتُ أنّ العالم كلَّه يحاصرني وأنا أستمعُ إلى حديثِه عن أجهزة الكمبيوتر داخل المحطات السريّة وهي تقوم بالبحث «تلقائيًّا» عنْ ملايين الكلمات يقومُ برنامجٌ خاصّ بتحليلها وفحصها.. سواء جاءت عبْرَ هاتفٍ أو بريدٍ إلكتروني أو جهاز فاكس.

قاطعت القائد: وما العمل؟

بعدَ الغداء، أعطاني حقيبة بها عددٌ كبيرٌ من خطوط الموبايل، وقال:

– عليك أنْ تستخدم الخطَّ في مكالمة واحدة، بعدَها تتخلّص منه بالحرق. وفي كلّ اتصال سيكون لك اسمٌ مختلف، وأحيانًا سيُطلب منك ألّا تردّ بحرف.

تسلّمت الشاحنة الجديدة وعشرة آلاف دولار، وصافحت القائدَ وأفرادَ تنظيمه، وانصرفت.

بعد شهر، وصلني رنينُ الموبايل، أسرعتُ بفتح الجهاز فجاءني الصوت:

- أنا في انتظارك بالحبانية.

واصلتُ السيرَ وأنا أفكّر في العملية القادمة.

(٧)

الكلابُ السّوداء تطاردني

– ا –

حميدٌ الأمين

حاول أن ينقّي نفسَه من شوائب تجربةِ السّجن القاسية، فكان لا يبرحُ مكانَه أمام التليفزيون.

يشاهدُ أفلام الأبيض والأسود.. الأفلامُ التي كان يعدّها ساذجة، وتفتقر إلى الخيال الخصب. اليومَ يجلس أمامَها مشدوهًا، وكأنّه يرى فيها إبداعًا خارقًا للعادة.

في المساء، حاولت روميساء الاتصالَ بخضر دونَ فائدة، كرّرت المحاولة عدّة مرّات. وقبل أن يهاجمَها القلق، دخلت غرفة «حميد» فوجدته يقرأ أوراقَه القديمة. كان يراجع أشعارَه الحداثيّة، وحواراته مع بابلو نيرودا وبودلير، عن أزهار الشر[١]، عنِ الحرب التي دمّرت الأبوابَ والجدران والمدنَ التي أصبحت حفنةً من رماد، ووجدتْها فرصةً للحديث فقالت:

(١) أزهارُ الشرّ: ديوان الشاعر الفرنسي شارل بودلير.

- عُدْنا للحداثة.

قال مُصحّحًا:

- تقصدينَ ما بعد الحداثة.

- وهل استوْعبنا الأولى؟!

- هضمْتُها وأفرزتها في السجن. الحداثةُ سردٌ مُصاحب للإمبرياليّة في لحظتها الحرجة، وأنساق خطابها ليبرر تطرفها وعنصريتها.

قالتْ وهي تلوّح في وجْه القلق العنيف الذي يصطخبُ في كيانها:

- وما بعد الحداثة تتحقّق هنا وسطَ الدمار والخراب.

ردّ عليها حميد..

- ما بعد حداثتي الخاصّة هي العودة إلى الذّاتِ.. إلى الأصل والجذور.

تواصَلَ الحوارُ حتى ساعةٍ متأخّرة من الليل، وعندما انصرفتْ إلى غرفتها، أمسكتْ أجندة هنري جو أرنولد، وبدأت تقرأ..

– ٢ –

هنري جو أرنولد

«استقبلَنا القائدُ في الموعد المحدّد، كان على مكتبه العلمُ الأمريكي ينسدلُ نحو أيقونةٍ للسيدة العذراء، وبجوارها ساعةٌ ثابتة على التوقيت الأمريكي، قال القائدُ في إيجاز:

– ما نريدُه مِن التفاوض مع الإرهابيّين.. هو جمعُ معلومات عنهم؛ مدى قوتهم، طريقة تفكيرهم. ويجب أن تنفردَ بلقاءٍ مع الرهينة. وتقفان على ما حصلتْ عليه مِن معلوماتٍ قبل أن نصلَ إلى الإفراج عنها.

قال نافذ:

– سيدي، قدّمت تقريرًا عنْ مقابلتي الأولى مع الخاطفين، وهُم ينتظرونَ تنفيذ طلباتهم قبل الإفراج عن السيدة إيرنيا بوليادورو.

حدقَ القائد في وجْه «نافذ» بنظرةِ اتّهامٍ صريحة، وقال:

– نحنُ لا نخضع لشروط الإرهابيّين.

تبادلنا النظراتِ في صمت، بينما واصل حديثه:

– سنكون قريبين منكم؛ لنتدخّل لحمايتكم عند الضرورة.

قال القائدُ في حدّة: إنّها مسئوليتي!!.

- تسمحُ لي أنْ أعلن أنسحابي.

واستدار «نافذ» مُنصرفًا، ولكنّ القائد استوقفه، وقال باقتضاب:

- تحمّل مسئولية النتائج إذًا، تفضّلوا.. نفّذ..

انصرفنا، وفي هذا اليوم اقتربتُ مِن الشابّ العراقي نافذ الأمين. تحدّثنا كثيرًا، قلتُ له: إنّ أبي مصوّر صحفي، وأمّي تعمل «كريوجراف» مصمّمة رقصات، وواصلنا السيرَ حتى وصلنا إلى نهرِ الفرات. كانت ضفافُ النهر مهمَلة، والماءُ ينساب في انْكسار. حدّثتُه عن أبي وأمّي، وكلبي البودل المدلّل. أخبرني أبي بأنّه انْقطع عن الطعام والشراب منذُ سفري، ويجلسُ أمام صورتي ولا يفارقها، توقّفت عن الكلام، وسألته متردّدًا: هل تسمح لي بسؤال؟

تفضّل.

- فيمَ تفكّر؟!

- مجرّد أفكار مجرّدة.

قلتُ ضاحكًا: أنا أحبّ التجريد.

ابتسمَ وهو يقول موضّحًا:

- الإنسانُ عندما يضع نفسَه فوق القانون، ويرفض الإذعانَ لأيّة سلطة أيًّا كان موقعُه؛ يتحوّل مع الوقت إلى مجرم.

كنتُ أعرف أنّه يقصد قائدَ القاعدة العسكرية. وربّما يقصد كلّ القوات الأمريكية، وربما الولايات المتحدة كلها. ولكني سألته:

– وأين الفكرة المجردة!؟

– إنّها (Image) صورةٌ ذهنية، تخيّل أيّ مجرم صادفتَ ورأيتَه؛ سترى الصورةَ التي أقصدُها.

وبعد لحظةِ صمتٍ قال: بلدك. وهنا أدوّنُ ملاحظةً.. لقد قالها وكأنّه يتّهمني، ثمّ استرسل:

– هاجمت السلفادور ونيكاراجو لسنوات.. دمّرت وقتلت عشراتِ الآلاف. وها هي تدمّر العراق، وقبْلها أفغانستان، ثمّ تتحدّث عنِ السلام وحقوق الإنسان.

والتفتَ نحوي، وتفحّص وجهي مليًّا، وقال: هل وجدتَ المجرم؟

تلقائيًّا مددتُ يدي لأصافحه، وما إنْ وضع يدَه في يدي قلت:

– لماذا تضعُ يدَك في يدِ مجرم؟

ابتسم وقال: تذكّر أنني كنتُ أراقبك منذ فترة.

تلاقتِ الجملةُ مع تلميحات كابتن أوين عنْ ملفّي المليء بالمُخالفات.

ودّعني «نافذ» وهو يقول: بعد ساعة، سنبدأ المهمّة.

- ٣ -

ماري أرنولد

«رائحةُ بارود وشواءٍ ملأت صدري، وكأنّني وسط حريق هائل.. أهزّ رأسي وأصرخ؛ فتمتدّ أيادٍ ملوّثة بالغبار والدماء تكتمُ أنفاسي، وصدري يخفقُ مثل عصفورٍ ذبيح، حتى أغوص وأستقرّ في قرارٍ عميق.

هذه المرّة- وبعد معاناة- فتحتُ عيني، ومددتُ أصابعي إلى عنقي، ثمّ انزلقت إلى صدري وأنا أتنفّس في صعوبة. فتحتُ فمي للهواء الخالي من البارود والشّواء، كنت راقدة على ظهري في غرفةٍ بائسة، بها أشياء مُبَعثرة على مفرشٍ من القشّ. وعلى صندوقٍ خشبيّ كان يستقرّ إناءٌ من الفخّار، وعلى الحائط استوقفتني لوحةٌ داخل إطارٍ من المعدن.. كانت الصورةُ لبدويّ في العقد الخامس أشبه بصورة تي لورانس بالزيّ العربيّ الذي تحتلّ غلاف كتابه «أعمدة الحكمة السبعة».

عرفتُ- فيما بعد- أنّها لصاحب المنزل الشيخ إسماعيل الكندي، وأنا أتفقّد تفاصيل المكان. وصلني صوتُ ضجّة من الخارج. كان صراخَ امرأةٍ وصوتَ رجلٍ ثائر يردّ عليها في عنفٍ وغِلظة. اقترب الصوتان من بابِ الغرفة وازْدادا حدّة. كانا يتحدّثان بلغتِهما التي لا أعرفها، ومع الكلماتِ

العالية بدا وكأنّهما قد اشتبكا في معركة، واصْطدما بالباب الذي اهتزّ ليُفْتح على مصراعيه، وتظهر سيدةٌ تحاول منعَ شابّ من اقتحام الغرفة. كانت المرأةُ تقاومه في ضراوة، والشابُّ يصرخُ بكلمات حادّة.. وهو ينظر نحوي في غضب. دفع المرأةَ من أمامه، وبإحساس غريزيّ شعرتُ بخطر؛ فقد كان يريدُ قتلي، تحاملت على نفسي وجلست وأنا أردّد في فزع «No. No»، وأنا أتراجعُ إلى الحائط، رأيتُه يستلّ سكينًا مِن ثنايا ملابسه ويرفعُه في وجهي، ممرتُ بلحظةِ موتٍ حقيقي مؤلم، وبدأ صدري ينتفض. وفجأة، اندفع رجلٌ إلى الغرفة صائحًا، لطَمَ الشابَّ على وجهه، وقذفَ به بعيدًا، ثمّ التفتَ نحوي وفي عينيه نظرةٌ حازمة وهو يتحدّث إلى زوجته بكلماتٍ لم أفهمها ولم أسمعْها؛ فقد غبتُ عن الوعي.

***

بعد أسبوعين، عرفت ماري أنّ الطائرة قد سقطت، وقالتِ المصادر الأمريكية.. إنّ سقوطَها بسبب عطلٍ أصاب محرّكها. وردَّتْ مصادرُ من المقاومة العراقية إنّها تمكّنت مِن إسقاط طائرةٍ حربية أمريكية بواسطة صاروخ متطوّر، ولم ينجُ من وفدِ اللجنة الدولية للصليب الأحمر إلّا سيّدتان وأحدُ الأطباء.

عاشت ماري في كنفِ أسْرة الكندي عشرة أيام.. أحاطوها بالحبّ.. شاركتهم طعامهم، وسهراتهم، وأحاديثهم عن الحرب. ورفيدة- طالبةُ

الثانوي- أصغرُ أفراد الأسرة تجتهدُ في ترجمةِ الحوار الدائر. صباح اليوم، جاءها مندوبٌ مِن الهلال الأحمر، وقال لها:

- جئتُ لنقلك إلى أقربِ مستشفى لاستكمال العلاج.

تدخّلت روفيدة، والتي أقامت مع ماري صداقةً وطيدة، وقالت:

- طنط ماري وعدتني بحضور حفل زفافِ صديقتي جلاء.

أومأتْ ماري برأسها؛ فقد كانت تتشوّق لحضور احتفالٍ عربيٍّ، فالصورةُ التقليدية العامرة بالبذخِ والزينات والموسيقى، والتي روّجت لها هوليود تنتظر رؤيتَها في الواقع.

وبدأ الاحتفال، وبدأت تتابعُ طقوسَه الساحرة في انبهارٍ، ولأوّل مرّة تستعيد وجهَها القديم، وتصلُ إلى لحظة الاكتمال في سلاسة، ودونَ أن يتمزّق الجسد أو تكسّر العظام، ومع الموسيقى العراقية عادَ الرّواء ناعماً إلى وجْه الحياة. وهي في حالةٍ من التصالح، تقدّم منها حسن الكندي الذي اقتحمَ الغرفة لقتْلها، فشعرتْ بنصلِه اللامع يفسد عليها كلّ شيء، حسن الكندي روّعها بنظرتِه نحوها وهي تفكّر في الهروب. وجدتْ روفيدة إلى جوارها تقول:

- أخي حسن جاء ليعتذر.

تنهّدت ماري، وابتلعت دفقةَ هواء.

قال حسن: آآآآآسف.

وواصل حديثَه عن أصدقائه الذين قتلهم الأمريكان؛ ممّا جعله يكره كلّ أمريكي، ثمّ انصرف. وترجمتْ شقيقتُه الحوار بتصرّف، وماري تحاول استعادةَ إحساسها. شاركتِ الناسَ رقصهم وغناءهم.. وهي تقبض على شعورٍ عابر بالسعادة، تقدّم منها جنديّ أمريكي، وأشار عليها بالانصراف معه. رجَتْه حتى ينتهي الحفل، ولكنّه أصرّ على الذهاب، فودّعت ماري الجميعَ وقبّلت روفيدة، واستقلّت السيارة وهي تواصل التّلويح بيدِها، قال لها الجنديّ وهو يبدأ السير:

– كابتن صامويل ينتظرُك منذ ساعتين.

وفي هذه اللحظة، وصل صوتُ انفجارٍ تلاه عدّة انفجارات.. أمرتِ الجنديّ بالتوقّف ولكنّه رفض.. فهدّدته بإلقاء نفسِها خارج السيارة، فتوقّف وهو يكظم غيظَه، أسرعت ماري بالنزول، والتفتتْ فهالَها ما رأت، لقد تحوّل مكانُ حفلِ الزفاف إلى حريقٍ مروّع، وعددٌ من الناس يُهرولون بعيدًا عنه، وبعضُهم قد قبضت النيران بتلابيبهم، وخطت صوبَ الحريق.. ورائحةُ البارود والشواء، شواء اللّحم الآدمي تندفع إلى رئتيها وتكتمُ أنفاسها...

– ٤ –

خضر بنُ ماء السّماء

وكأنّ صخرةً قذفت في بحيرة صامتة فحرّكت السائلَ، فكانت لحظة الاصطدام التي انتشلتْ من أعماقه قشعريرة اتّسعت مع دوائر الماء، وحوّلت كلّ شيء فيه إلى رغبةٍ أكيدة للخروج من الدائرة التي حاصرته، شيئًا فشيئًا وجد «خضر» نفسَه عضوًا في التنظيم المقاوم للاحتلال. كان مع كلّ خطوةٍ يخطوها إلى الأمام يرى السلكَ الشائك والمحيطَ الوهمي للدائرة، ويمتلئ صدرُه بالتحدّي، يفتح مسامّه وعينيْه في وجْه الحياة، ويرى بقعةَ الماس المرصّع بالدّهشة واكتشاف الحياة. كان يقتربُ من الخَلل الذي تقفُ روميسة على أعتابه، وتبحثُ عنه في دراستها.. عندما يقف أمامَها كنَصّ.. تردّدت قبل أن يستقرّ حبّه في قلبها.. خضر بنُ ماء السماء. كانت تراه نموذجًا، وتدخل في النّص.. تستبطن ذاتها داخلَه حتى قالت له: بدونك الخوفُ يلفّني، يربضُ في ممرّات قلبي الذي يحبّك.

وهو يرى العالَمَ الذي وجد نفسَه في بؤرته، كان يلجُ غابةَ الكلام. يقتحم ممرّاتها.. وحديث قائد التنظيم عنْ بؤرة الخطاب السياسي الذي يروّج له عبرَ «ميديا» الكذب والنفاق.

قال القائدُ ساخرًا:

– سوف نتّبع نصيحة جورج بوش، ونقرأ كتاب ناثان شارانسكي لنقف على مفهومِه للسياسة الخارجية، فهذا الكتاب يمثّل الخريطة الجينيّة لرئاسته حسب اعْترافه.

كانت الجلسةُ مقتصرةً عليهما- خضر وقائد التنظيم- وهو يشرحُ له العملية الجديدة التي ينوي القيامَ بها.. على جهاز كمبيوتر، وظهر نقاشٌ حامٍ بين الرئيس جورج بوش وعددٍ من القادة.. قال له إنّه تمّ تسجيل هذه المشاورات، والتي تمّت عبر دائرةٍ تليفزيونية مغلقة- فيديو كونفرانس- وعمليّتنا رسمتْ لإجهاض هذه الاستراتيجيّة التي يتحدّث عنها، وإفراغها من محتواها.

..»منذ يومين، عندما وصلت إلى الحبانية، نزلت من الشاحنة واصطحبني أحدُ الأعضاء في سيارةِ إسعاف. كان بها عددٌ من الجرحى، وبعض الجثث. ناولني كيسًا به بالطو أبيض، وقال:

– في جيب البالطو بطاقةٌ باسْم دكتور كمال شرارة، عليها صورتك، البسِ البالطو.

تنهّدت وأنا أفتح الكيس:

– أنا الآن دكتور كمال شرارة.

- وستقضي بقيّة اليوم في المستشفى.

عندما وصلنا؛ فُتحتِ الأبواب. وساعدت العمال في نقل الجرحى، وحملتُ الجثثَ إلى مبنى الثلاجة التي تحتلّ البدروم. كان السائقُ متعجّلًا.. ولكن استوقفَه عضوٌ في التنظيم- كان يرتدي زيَّ عامل من العمال، وقال:

- جثةُ الشهيد وليد جاسم ستحملُها إلى ذويه.

امتقعَ وجهُ السائق، وغمغمَ:

- إنّا لله، وإنّا إليه راجعون.

والتفتَ نحوي، وقال:

- الشهيد وليد كان عضوًا معنا.

وعرفتُه فيما بعد، عندما ذهبتُ إلى الثلاجة وأخرجته، إنّه قائدُ نقطة التفتيش الوهميّة التي قامت مجموعتُه بتثبيت القنابل وعجائن التفجير ببطنِ الشاحنة الأولى. نظرتُ إلى ملامحه المغطّاة بالدّماء الجافّة، وصوتُه يتردّد في أذني. وعندما انحنيتُ لأقبّل جبينَه، شعرت وكأنّ ذراعيه قد امتدّت إليّ وعانقتني في حرارة.

قال لي قائدُ التنظيم:

- أمامَك شهرٌ لتحدّد لنا أماكنَ مخازن المعدّات والأسلحة في هذه القاعدة التي ستموّنها بالوقود.

ورسمَ دائرةً حول مكانها على خريطةٍ ظهرت على شاشة الكمبيوتر.

قلت له: هذه المخازن محصّنة.

- سنجرّب صواريخَ جديدة قبل التنفيذ.

ورمى بقلمه على المائدة، وقال:

- شحناتُ الأسلحة التي تدفّقت مؤخّرًا سوف تُستخدَم في تحقيق الخطة التي رسمتْها قواتُ الاحتلال بالكثيرِ من القتل والتدمير.

وأنا أستقلّ سيارة نقل الموتى في طريقِ العودة إلى مستشفى الحبانية، أجريتً أوّل اتّصالٍ بزوجتي.. تواصلَ الرنينُ قبل أن أفتح الجهازَ وتردّ في لهفة: آلو، آلووووو!!

كانت الليلة التي قضيتُها في المستشفى ليلةً لا تنسى؛ فعددُ القتلى الذين توافدوا فاقَ تصوّري؛ تكدّست الثلاجة، وبقيت ثلاثون جثّة لم يُجَدْ لها مكانٌ، فأشرت على الطبيب النوبتجي بضرورة دفنِ الجثث التي لم يأتِ أحدٌ لاستلامها.

وبالفعل، أصدر أمرًا للعمّال، ونُقلت الجثثُ إلى أحد المقابر، وأصررتُ على إقامةِ مراسم الدّفن والصّلاة على أرواحهم. وقبل العودة تحدّثتُ إلى روميسة:

- أمامي يومٌ واحد، وأكون عندك.

انفجرت في البكاء، وهي تقول:

- ألم أقلْ لك أنتَ غير طبيعي!!

- حبّك لي يصفحُ كلّ أخطائك.

- لا تتحدّث عن الحبّ؛ فأنتَ لا تعرفه.

- مَن يحبّ يصفحُ عمّن يحبّه.

- ويقتلُ مَن يحبّه أيضًا.

قلتُ مغيّرًا دفّة الحديث: قبّلي لي روميسة الصغيرة.

- سأتركُ لك هذه المهمّة عندما تعود.

– ٥ –

روميساءُ الأمين

الليالي الطويلة التي مرّت عليها كانت بالونةً فارغة.. أصرّت على العودةِ إلى دراسة الماجيستير، وجذبتْ أخاها «حميد» إلى الكلام لتؤكّد شفاءه التامّ.. الحديثُ بينهما يتواصل. كانت ترى بقعةَ الضوء وهي تستقرّ بعيدًا في آخر ممرّات ذاتِها العميقة.. تحاول الإمساكَ بها دونَ جدوى، تساءلت:

– هل يوجدُ ربطٌ بين «خضر» ومختلف تركيبات البنية الأوديبيّة؟

نظر نحوها «حميد» وهو يدوّن كلمةً في طرف قصيدته، ثمّ قال:

– توجد مشكلة.

– ما هي؟

– المقولاتُ الفكرية التي ترسّبت، وأضحتْ وجدانًا تجريديًّا في وعي النّخبة.. هي مقولاتُ معجمٍ حضاري مختلف، بل ومُتناقض مع الأسس الحضارية التي يستحقّ أن تفخر بها الذات.

كانت اللّغة التي تحبّها قدْ عادت تسكن «حميد» مِن جديد، سألته لتجذبَه أكثر إلى عالمِها الفارغ:

- ماذا تقصد؟

- فرويد سجَنَ الإنسانيةَ في عقدة أوديب حتى اعتبرها أنّها الثابت العامّ للنفس الإنسانية، ونموذج المأساة.

- وماذا ترى؟

- الثابتُ الأكيد هو الموت.

امتعضَتْ وهي تقول:

- رؤية عدميّة.

- حالةُ اغتراب.

أصابَها الارتباك، وحميدُ يقرأ لها قصيدته.

..، شيء مُهان يا رفاقي

أنْ تذوب الآهُ فينا..

تكركع في مفاصلنا..

وتخرج مِن مآقينا دخان.

شيء مهانٌ في زمان..

كلّ ما فينا مُهان..

قاطعتْه قائلة:

- أليستْ مقولةُ العدم والأرضِ الخراب، وتهميش الكرامة وعدم الاعتداد بالشرف؛ مُصطلحات حداثية؟!

- أنا أجهّز أشعاري القديمة للردّ عليها.

- ٦ -

حميدٌ الأمين

«أعترفُ بأنّني قبلَ أن أغرقَ في بحر العدم، كانت تجربةُ السّجن قدْ أصابتني بحالةٍ مِن البلادة، وعدمِ الاكتراث بالعالم، وبالأحاسيسِ الماديّة المباشرة، باللّذة، بالألم. وكأنّني واحدٌ من عبيد العصر. الجنودُ المرتزقه الذين هبطوا علينا مِن الجحيم، كنت وأنا تاركٌ يدي معلّقة إلى جواري، وفي حالةٍ من السلبيّة المُميتة؛ أردّد شعارهم: لا خوف.. لا ضمير.. لا أخلاق. وكأنّ حالةً فريدة من مقاومة خنقِ الرّوح قد ابتكرتها. - واسمحوا لي أنْ أستخدم مصطلح «الذات العميقة» والذي تُدُووِلَ على لسان «روميساء الأمين»؛ للوقوفِ في وجه العالم الذي يقود حربًا دائمة من أجل سلامٍ دائم!!

وأنا أردّ على الصحفيّة الأمريكية «جوديث آدم» التي جاءت لزيارة السجن ضمن بعثةِ حقوق الإنسان، وهي تفنّد وثيقةَ الأوامر السريّة الموجّهة للجنود وضبّاط السجن، وترفضُ الاعتراف بأنّ أمريكا تعامل المُعتقلين بشكلٍ إنساني، وفي إطار روح اتفاقيّات جنيف، وأنّ أيّ سجين يمثّل تهديدًا لأمن الولايات المتحدة؛ سيظلّ رهنَ الاعتقال.

قلتُ لجوديث: جوديث، اسمعيني جيدًا..

انتبهتْ لوجودي، وقالت إنني كنتُ في زنزانةٍ مريحة. وهي تقدّمني في شريط صوتي، فاعترضتُ:

- لا يا سيدتي، أنا لازلت في معسكر «إكس- راي» حبيسَ قفصٍ حديديّ، روحي هناك مازالت في معتقل جوانتانامو.

قالت مُتعجّبة: ولكن أنت مُعتقلٌ هنا، في سجن عراقي.

قلتُ ساخرًا: كلّ السجون أمريكية.

سألتني وهي في عجلةٍ مِن أمرها:

- تكلّم، ماذا تريد أن تقول؟

- أنا أرى، بل أعترفُ وأقرّ.. أنّ الرئيس، بموجب الصلاحيات الدستورية، له الحقّ في استخدام كلّ الوسائل اللازمة دونَ استثناء في زمنِ الحرب مِن أجل تحقيق مهمّته القيادية، حتى ولو وصلَ ذلك إلى أعمال تنتهكُ القانون الدولي.

قالتْ مُعترضة:

- ولكنّ القاضي ديفيد كول اعترض لأنّه، بحكم هذا التفكير، يصبح بوش، بموجب الدستور، قادرًا على اللّجوء إلى الإبادة الجماعية إذا رغب في ذلك.

قلتُ متحدّيًا: وهذا ما يحدث.

حدقتْ في وجهي تحديقًا غيْر مهذب، وأنا أواصل مُبتسمًا:

- حكومةُ الظلّ طفتْ على السطح عندما تأكّدت أنّ الوضع أصبح خارجَ السيطرة.

رمَقتني وألقت سؤالها في غيظ: أنتَ مُسلم؟

أجبتُها باقتضاب: كنت قبل الغزو إنسانًا.

- والآن!؟

- لا إجابة.

وأنا أراجعُ أشعاري الحداثيّة، وصلتني رسالةٌ بالبريد العادي من جوديث آدم.. كان بها بريدُها الإلكتروني، ورقمُ الموبايل الخاصّ بها، وجُملة صغيرة مُقتضبة تقول: «مازلت أنتظر الإجابة».

وعلى الفور، طلبتُ من روميساء بعثَ رسالة إلى جوديث.. أخبرتها برغبتي الملحّة في منحي فرصةَ العمل في صحيفتها. وعلى الفور، جاءت الموافقة. وسوف تحدّد موعدًا لمقابلتي فوْر وصولها بغداد.

- ٨ -

أدركَ شهرزاد الصّباح

- أ -

ماري أرنولد

الحمّى التي أصابت ماري أرنولد، وغيبتها عن الوعي- لم تمنع مُثولها أمام الكابتن صامويل. كانت تقف أمامَه ترتعدُ، وقد قاربت درجةُ حرارتها الأربعين. وما إنْ رآها حتى أمر الجنديّ بالانصراف بها إلى طبيبِ الوحدة، ولكنّه فوجئ برفضها، وقالت في عصبيّة:

- أريد السفرَ فورًا إلى بغداد.

قدّم لها الكابتن مقعدًا لترتاح عليه، وقال في هدوء:

- أنتِ هنا في بغداد.

تلتفتُ حولها وهي تبحثُ في ذاكرتها عنِ الزمن المفقود، وبدأت تقترب صورةُ الحريق المروّع وصوتُ انفجارات تتوالى.. وهي تقتربُ من ألسنة النار. فجأة، انقضّت عليها صرخةٌ مدوّية، وما أنِ التفتتْ حتى وجدت

روفيدة وقدِ اشتعلتْ فيها النار، تسقط بالقربِ منها وهي تنادي: طنط ماري، طنط ماري..

«قدّم لي كأسًا من النّبيذ، وقال:

- أنتِ في ضيافتنا منذ أسبوع.
- لم أشعرْ بشيء.
- يجبُ أن تذهبي إلى الفراش الآن.
- ولكنّني أريد الاتصالَ بصديقة لي.

قدّم لي تليفونه الخاص.. تناولته.. وضغطت على الأرقام، وما أن وصلني صوتُ روميساء، حتى قلت: نعم.. نعم، أنا أتحدّث إليكِ مِن العراق، نعم بالتأكيد، حالًا سنلتقي.. أعطني العنوان.

تناولت ورقةً من يدِ الكابتن، ودوّنت عليها العنوان. أغلقت الموبايل ورجوت الرجلَ مساعدتي للوصول إلى العنوان، فردّ قائلًا:

- مِن الأفضل الانتظارُ حتى يتمّ الشفاء.

تحسّست جبيني، وقد ذهبتِ الرّعدةُ بعد هبوط الحرارة، وقلت:

- أنا شُفيت تمامًا، أرجوك؛ صديقتي تنتظرني.

أومأ برأسه، وأمرَ بسيارةٍ خاصّة لتوصيلي. ولم ينسَ تحذيري من فِرَق الموت التي تنتشر في المدينة مثل الذباب.

والعربةُ تخترق شوارعَ بغداد المليئة بالصخور ومخلّفات التفجيرات.. وبعض الحفر التي يجتهدُ الجنديّ الذي يقودُها في اجتيازها؛ كنت أتعجّل الوصول إلى صديقتي روميساء، وأقفُ منها على الحقيقة. ووجيبُ قلبي يفرغ ثرثرةً تحول بيني وبين هنري، وأستعيدُ صورة روميساء بابتسامتِها العذبة.. الغارقة في وميضٍ من الشّجن.

توقّفت السيارة، وأشار الجنديّ إلى باب فيلّلا صغيرة، وقال:

- العنوان.

نظرتُ نحو المبنى، والبابُ يقترب منّي خطوةً خطوة.. والخواطرُ تتصادم.. والعمرُ كلّه يذوبُ حتى يقترب مِن حافّة الصمت. رأيتُها وهي تجتازُ الممْشى وسطَ الحديقة.. وأسرعتُ بفتح الباب، تأمّلتني وابتسامةُ الشّجن تحاصر ملامحَها، ثمّ همستْ وهي تشملني بنظرةٍ لم أرَ مثلها في حياتي: ماري!!

غمغمتُ وقد شعرتُ بالأرض تبتعد عنْ قدمي: روفيدة!!

امتدّت يدي، وصوتُ روفيدة يقتحمُ رأسي العاجز، وهي تصرخ من فرطِ الألم: طنط ماري.

الصوتُ الذي ظلّ يطاردني.. كان مثلَ رصاصة اخترقتْ قلبي، ضممْتُها وأنا أجهش بالبكاء.

- ٢ -

حميدُ الأمين

حميد الذي كان ينتظر زيارة «جوديث آدم» قابلَ ماري بحفاوةٍ وردت مشاعرها بامتنان، والدفء الإنسانيّ يحْتويها، أحسّت بأنها مؤهّلة لتفاصيل ليلةِ قتْل هنري، قالت روميسا:

- التفاصيل يعرفُها زوجي خضر، عندما يعود سيخبرُك بها.

سألتها ماري:

- وأنتِ، ماذا تعرفين؟

- أنا لم أتسلّم سوى جوالين، قيل لي إنّهما لأبي وأخي، أمّا جثة هنري فلا أعرف عنها شيئًا.

لم تعرفْ روميساء حقيقةَ مشاعر ماري التي كانت تستمعُ إليها، وقد خيّم عليها صمتٌ بلا ملامح محدّدة.. وشخصتْ بعينيها في الفراغ.

قال «حميد» عندما انصرفتْ روميساء للحظات:

- إنّها الحرب يا سيدتي.

عادتْ روميساء، وقدّمت أجندةَ هنري إلى ماري. عندما أمسكتْ بها تطلّعت إلى صورة ابنها وهو يبتسم.. وتبدو أسنانُه البيضاء لامعةً برّاقة، قالت إنها تمنّت أنْ يكون مثلَ نجمِ هوليود «جيمس دين»، والذي ماتَ مثله في ريعان شبابِه. عاودتْها الرعشة، وانبثقتْ دمعةٌ حارّة وهي ترفع الصورةَ إلى شفتيها، وتغمغِمُ:

- هنري.

- ٣ -

روميساءُ الأمين

«..، الرّغبةُ وإرادة التحدّي والبقاء، كانت تنتشلُ ماري مِن أحزانها، وتعيدُها إلى الحياة.. إلى اللّحظة التي تعيشها وسطَ حالةٍ من الدفء الإنساني النّادر بين جدران بيتِ الأمين.. رغمَ التّهديد الذي لا يتوقّف بالموت.

وآلامُ الحمْلِ تزدادُ وتعيق حركتي. وجدت ماري سعادةً وهي تشاركني أعمالَ المنزل، تقدّمت هي لإعداد الطعام.. وطلبت منّي الجلوسَ وهي تحكى لي عنْ زوجها جو، مثلها الأعلى، والإنسان الرّائع الذي يملأ عليها حياتها. كانت مشغولةً بتقطيع قرونِ الفاصوليا الخضراء عندما وصلَ رنينُ الموبايل، وعلى الطرف الآخر جو أرنولد.. تناولت الجهاز في لهفةٍ:

جو، حبيبي.. أشتاقُ اليك، أنا هنا عند صديقتي روميساء.

وألقتْ نظرةً نحوي، وضحكةً صغيرة غرّدت فوقَ ملامحها، وواصلت الحديثَ مع زوجها، وهي تعيدُ نطق اسمي.

روميساء اسمٌ عربيّ، أجواءُ الشرق الساحر قضتْ على أحزاني.. هل تعرف.. إنني أفكّر في تقديم عرضٍ جديد، دراما عنِ الحرب وأمريكا

والإرهاب، وعنْ ألف ليلةٍ وليلة، لا.. موسيقى كورساكوف لنْ تحقّق فكرتي؛ الموسيقى هنا، العرضُ، والخطواتُ المبتكرة، كلّ شيءٍ هنا، الأجواء، الـ..

في هذه الليلة، ودّعت ماري التي استقلّت بغرفة أمّي، وسيطر عليّ قلقٌ خانق تحوّل إلى غيظٍ مِن زوجي «خضر»، كنت أتمنّى عودتَه لأرْغِمه على البقاءِ معي ليكون إلى جواري وأنا أضعُ مولودَنا، وأكرّر طلبي بالسّفر مِن هذا الجحيم إلى مصر.

– ٤ –

هنري جو أرنولد

«في مكتب الميجور ريتشارد راسل، لم أرفعْ عيني عنْ لوحة السيدة العذراء. وكان قد طلب لقائي قبلَ الذهاب للتفاوض مع الإرهابيّين، قال الميجور:

– نحن نرفضُ مبدأ التفاوض مع الإرهابيّين لإطلاق سراح الرهائن

– هل ألغيتَ العمليّة.

صَبّ كأسيْن مِن الشامبانيا، وقال في ودّ:

– إنّها مسألةُ أمنٍ قومي.

كانت الكأسُ المثلّجة تنسابُ في إغْراء، وفقاعاتٌ بيضاء تتناثر على السطح.. رفعتُها إلى فمي، والميجور يواصل حديثَه:

– الأوْلويّة عندنا للأهداف، وهدفُنا التأكّد مِن أنّ الصحفية الإسبانية إيرنيا بوليادورو لم تعرفْ معلوماتٍ تُدين الجيش الأمريكي، وهذه هي مهمّتك.

تناولتُ رشفةً من الكأس، ثمّ قلت:

- سأتفاوضُ بصفةٍ شخصيّة.

- أنتَ والمترجم نافذ الأمين مراقبان، والتّفاوض مسئولية السفارة الإسبانية ورجلٍ من المخابرات.

اصطحبت «نافذ»، وتابعنا السيرَ حسبَ توْجيهات كانت تصلُنا عبرَ جهازٍ محْمول متطوّر. وعندما وصلنا إلى ساحةٍ شبْه خالية، كان يتصدّرها مسجدٌ على جدرانه ثقوبُ طلقات.. أمرنا صوتُ الموبايل بالتوقّف، ووضع عصابة سوداء على عيوننا، تردّدت.. ولكنّ «نافذ» قال لي: لا بأس. وأخرج عصابتيْن مِن القماش الأسود. سألته وهو يبدأ في عصْبِ عينيْه:

- هل كنتَ تعرف؟

- أخبروني بتنفيذ الأوامر.

عصبتُ عيني، فأحاطني الظلام، وبدأ يتسرّب إليّ الخوف..

قال نافذ:

- بعدَ هذه العملية سأزورُ أسرتي التي لم أزرْها منذ الغزو.

- لماذا؟

كان صوتُه مليئًا بالحزن وهو يقول:

– كنتُ معتقلًا لدى الجيش الأمريكي، وتمّ الإفراج عنّي منذُ شهر. وقد طلبَ منّي القيامَ بهذه المهمّة لإثبات الولاء.

قطع الحديثَ رنينُ الموبايل، وجاء الصوتُ يأمرنا بالهبوطِ من السيارة، وما إنْ نفّذنا الأمر، حتى وصل صوتُ سيارة تقتربُ توقّفت بالقرب منّا، ودار حوارٌ مع «نافذ» باللّغة العربية، وساعدونا في ركوبِ سيارتهم، وانطلقوا بنا.

عندما وصلْنا إلى المكان، وجدْنا رجلَ المخابرات الإسباني يجلس إلى إيرنيا بوليادورو، فكّت العصابات السوداء قبل الدخولِ، وسارع «نافذ» إلى رجل المخابرات، وتحدّث إليه بالإسبانية بشأن فدْية الإفراج عن الصحفيّة إيرنيا، فأخرج الرجلُ مفتاحًا مِن جيبه، وقال:

– المبلغ في حقيبةِ السيارة.

تناول نافذُ المفتاحَ وأسرع بالخروج، وعاودت إيرنيا البكاءَ وهي تتحدّث باللغة الإسبانية التي لا أفهمها، ثمّ التفتتْ نحوي وقالت بالإنجليزية وبلهجةٍ عدائيّة:

– أريد أن تعرفَ شيئًا واحدًا. لقد أعاق الجيش الأمريكي جهودَ الإفراج عنّي أكثرَ من مرّة، والذي أساء لي هو الجيش الأمريكي.

كان رجلُ المخابرات قد سبقنا وأنهى التفاوض مع الخاطفين، ولم يمكثْ نافذُ كثيرًا؛ فسرعانَ ما دخل علينا بصحبةِ أحدِ الخاطفين الذي غطّى وجهَه تمامًا إلّا مِن ثقبين أمامَ عينيه وآخر عند فمِه..

قال نافذ وهو يشير لإيرنيا: هيّا..!!

وقفْنا فأسرع الرجلُ بوضع العصاباتِ السوداء فوقَ عيوننا، وقادنا إلى الخارج، ركبْنا السيارة، وقال لنا قبل الانطلاق:

- أحذّركُم مِن أيّة محاولة تدلّهم على وجودنا.

بعد دقائق، اقتربَ صوتُ مروحيّة حلّقت فوقنا تقريبًا، وبدأ صوتُها يبتعد. بعد ساعة، أوقفت السيارة، وأمرنا الرجلُ برفع العصاباتِ عن عيوننا، فوجدْنا سيارتنا العسكرية مكانَها أمام المسجد.

قال الرجلُ لإيرنيا ورجلُ المخابرات الإسباني وهو يشير لنافذ ليترجِمَ كلامَه:

- كونوا على يقينٍ أنّ الأمريكيّين لا يريدون عودتَكم سالمين.

ثمّ أشار لنافذ: سيارة إيرنيا وراءَ المسجد.

وانطلق. وما إنِ اسْتدار حتى رأيتُه يرفع القناعَ عنْ وجهه. صعدتُ إلى السيارة.. وأنا أنتظرُ عودة نافذ الذي ذهبَ مع الرجل والصحفية لإحضار

سيارتها، وصلني صوتُ الميجور ريتشارد عبْر الموبايل، فأخبرته أنّ رجلَ المخابرات الإسباني أنهى المفاوضات مع الخاطفين قبلَ وصولنا.. فجنَّ جنونُه، وقال ثائرًا:

– لماذا لم تتدخّل لوقف العملية؟!

– كان ذلك مستحيلًا.

صرخ الميجور: أنتَ عارٌ على الجيش الأمريكي.

ابتلعتُ اتّهامه، وقلت: لو وجد خطأ؛ فهو ليس خطئي بالتأكيد.

أغلقَ الرجل الخطّ، وعربةُ إيرنيا تمرّ إلى جواري، قفز نافذُ وراءَ عجلة القيادة، وقال لي:

– معي من رجل المخابرات الإسباني تحذيرٌ لك.

انفجرت في وجهِه:

– ليس لي علاقة بأي شيء.

قال نافذ في هدوء:

– القيادة على علمٍ باتّصالاتك مع جون بروست القاضي السابق في محكمة مجرمي الحرب التابعة للأمم المتحدة.

تحوّل الغضبُ إلى ذعرٍ حقيقي، ونظرة كابتن لويس أوين تترصّدني، وصوتُه يتردّد في أذني: ملفّك المليء بالمخالفات مسئولٌ عن اختيارك.

انطلق نافذ بالسيارة، وأنا أشعرُ بالكارثة التي ستحلّ فوقَ رأسي، وها هي الفرصة التي انتظرَها كابتن لويس تسقطُ في يده. كنت أنظرُ إلى سيارة إيرنيا التي تسبقُنا على الطريق.. عبَرنا نقاطَ تفتيشٍ للجيش الأمريكي. وعند آخر نقطة، أمرنا جنديٌّ أمريكي بالتوقّف والعودة لأخذ طريقٍ آخر، ونافذُ يتأهّب للدوران إلى الخلف.. وصل إلى سمْعِنا صوتُ طلقاتٍ ناريّة متلاحقة.. كانت موجّهةً صوْب سيارة الصحفيّة إيرنيا بوليا دورو، وراحت تترنّح وقد فقد قائدُها السيطرةَ عليها تمامًا.

قالت إيرنيا بوليادورو في مقابلةٍ صحفيّة مع جريدة إسبانية بعد نجاتها من الموتِ بأعْجوبة.. إنّ خاطفيها أطلقوا سراحَها، وانطلقتْ مع رجل المخابرات في الطريق إلى المطار، وقبل الوصول تعرّضنا لإطلاقِ نارٍ كثيف، وصرخ الرجل: إنّنا إسبانيون. وأوقف السيارةَ ورمى نفسَه فوقي ليحميني، لكنّه لفظ أنفاسَه بعد إصابته بعدّة طلقات، ورجحت أنّ العملية مدبّرة لاعتقالها لسماعِ أقوالها عن فترةِ الأسْر قبل عودتها إلى مدريد..

– ٥ –

روميساءُ الأمين

مع طرقاتٍ مُتلاحقة على الباب، كانت آلامُ الوضْع تزداد قسوة. أسرع نحوي «خضر» فتعلّقت به، وماري تبذلُ جهدًا خارقًا لمساعدتي، أيقنتُ أنّ الموت يقتربُ من فراشي، والماءُ المختلط بالدّماء يندفع مع عمق الضرباتِ التي تنفجرُ من أحشائي، ومع الآلام كنتُ أريده وأتمنّاه، قلت لخضر:

– أريدُ أن أموت.

ضغطَ على كتفي، وقد لمحتُ دموعَه تنساب على وجهه وهو يقول:

– لا، ستقومين بالسلامة.

– أنت واهِم.

– ستقومين.

أشارت ماري له بالانصراف؛ فصرخت:

– لا تتركني.

وتحدثت إلى ماري التي قالت مُشفقةً عليّ:

- الألمُ القادم أشدّ.. تحملي.

قلت وسطَ صراخي:

- لا أريد ألمًا.. أريد الموت.

رفعت الثوب.. ولم أرَ الشفرة التي أخفتها.. وفي سرعة مزّقت الجلد؛ فاشتعلت النارُ في جسدي كلّه، وصرخت:

- مجنونة، نو..

ومدّت يدَها إلى الجرح وهو يتّسع، وأخرجتِ الجنين. بعدها شعرتُ بروحي تُسحب مني، ولم أدرِ بشيء..»

وأحضر «حميد» القطنَ والشاش، وخيطَ جراحةٍ، وبعض المسكّنات، والمراهم، والمطهّرات. تناولتْهم ماري وأغلقت الباب.

وجلس قبالة «خضر»، وسأله:

- تمّ الوضْع؟

- الحمد لله.

- مبروك.

ثمّ سأله:

- ولد أم بنت؟

- لا أعرف. ما يهمّني روميساء تقوم بالسلامة.

- بإذن الله.

وتذكّر «خضر»، فالتفتَ إلى «حميد» وسأله:

- مَن هذه السيدة؟

- ماري أرنولد.

وواصل موضّحًا:

- أمّ الجندي الأمريكي هنري جو أرنولد، الذي..

قاطعَه خضر:

- أعرفُه.

- أمّه جاءت.. عبرتِ المحيطَ والقاراتِ لتأخذ جثتَه إلى أمريكا.

خرجتْ ماري من الغرفة.. ورغم الإجهاد الواضح عليها أصرّت على معرفةِ تفاصيل جريمة قتْلِ ابنها مِن خضر. وفي النهاية قالت:

- ما أريدُه منهم جثةُ ابني لأعود بها.

قال خضر:

- أحيانًا يرفض الجلّاد تسليمَ الجثة.

- ماذا تقصد؟!

- يومياتُ هنري ستجيبُ عن سؤالك.

- ٦ -

خضر بنّ ماءِ السّماء

«حربٌ مثيرة ضارية.. مثل إعصارٍ مدمّر اجتاحتْ كياني. كانت الحيرةُ التي اقتلعتْ ثوابتَ الرّجاء والأمل قد وجدتْ شاطئًا أخيرًا لتستقرّ عليه وسطَ خرائبِ وأطلالِ الأحلام والذكريات. سرتُ إلى جوار قائدِ التنظيم، وقلتُ له: أريد أن أخرجَ من الدائرة.

- تباشيرُ النصر قدْ بدت.

- إنْ لم أشارك فيه سأظلّ في سجني اللّعين.

- ماذا تريد؟

- الخروج من الدائرة.

- ....

كنتُ قد انْتهيتُ من مهمّتي، وحدّدت مخازنَ المعدات والأسلحة بدقّة داخلَ القاعدة الأمريكية، قلتُ له:

- في هذه المخازن صناديقُ قنابل يورانيم مستنفذ.

- نعرف.

- ومتى التنفيذ؟

حدجَني بنظرةٍ مُريبة، وقال بلهجةِ تحذير: لا أعرف.

غمغمتُ: أنا..

- قاطعني: ستبقى معنا حتى تتمّ العملية.

- هل تشكّ فيّ؟!

ما أعرفُه أنّ الامريكان يملكون مِن الوسائل ما يخرجون به كلّ ما في جوفِك.

في نفس الليلة، بدأ التنفيذُ. قربَ الفجر انطلقتِ الصواريخ- الذي استغرقَ نقلها وتجهيزُها شهرًا- مِن مخابئها الخفيّة فوق كلّ شبر في القاعدة الأمريكية، وحوّلتها إلى حريقٍ هائل. وعلى الفور حلّقت المروحيّات المقاتلة، وأمطرت المنازلَ والمحال القريبة بالقاذفات، وذكرتْ وكالاتُ الأنباء أنّ قاعدةً عسكرية أمريكية حصينةً قرب مدينة سامراء التي تبعد ١٢٢٠ كيلو مترًا شمالَ بغداد تعرّضت لقصفٍ بعددٍ هائلٍ من الصواريخ في الساعات الأولى من صباح الأمس، وامتنعَ الجيشُ الأمريكي عن تحديدِ حجم الخسائر التي فاقت كلّ تصور.. وعلى الفور، بدأت عملياتُ تفتيشٍ ومُداهمة للمنازل القريبة. وبعد أنْ كشفتْ وسائل الإعلام عنْ ممارساتٍ لا إنسانية للجنود

الأمريكيّين مِن اعتقالاتٍ، وهدمِ منازل، وتدمير؛ أعلنتِ القواتُ الأمريكية انتهاءها مِن عملية القبض على المطلوبين.

ودّعت الرجال، واصطحبني القائد وقد بلغَ الحماس به حدًّا بعيدًا وهو يقول لي: طلائع الضياء بزغتْ، والكربُ متى اشتدّ انْفرجت.

- الحمد لله.

ورفع يدَه نحو السماء، وقال: اللّهمّ أتمّ علينا النصر.

غمغمتُ: آمين.

عانقني مودّعًا، وقبل صعودي الى السيارة، قلتُ له:

- العملية القادمة سأنفّذها أنا.

أومأ الرجلُ، وقال متأثّرًا: أنت لها.

انطلقتُ عائدًا إلى بغداد، وأجريتُ أوّل اتصال بروميسة، فأخبرتني بأنها على وشْك الوضْع، وتريدُني إلى جانبها.

كان صوتُها ضعيفًا؛ فقلتُ لأطمئنها:

- أنا في طريقي إلى بغداد.

أغلقت الموبايل، وسرحتْ خواطري، والطريق يمتدّ أمامي فسيحًا، «روميسة أنا بحبك»

ارتباكها، وإطراقة جفنيْها الناعمين، لحظة امْتدّت أصابعها، ولوّحت أمام ابتسامتها، كان اعترافًا صريحًا لي، رغم أنّها ادّعت أنّني مجهول.. هبط من كوكب آخر، وهي لم تتعوّد على حبّ إنسانٍ مجهول.. وهبتُ لها كلّ شيء، فتحت أبوابي وغابة الكلام، حطّمت أسوارها.. ودعوتها للدخول فاعتبرتني قضيّة حياتها، وأنا أتحوّل أمامَها إلى كتابٍ مفتوح. ورغم ذلك عجزت عنْ فكّ رموزه وهي ترفض الاعترافَ حتى اليوم بحبّها لي.. فقد اعتبرت حالتَنا مجرّد استثناء، فترة عابرة، ولكنّها تبحث عن قاعدةٍ للحبّ، للحياة.. والنتائج التي كان يؤكّد عليها نافذُ هي الأهمّ، ولكن كلّ هذا العناد والرفض تبدّد عندما ألقيت عليها أوّل نظرة بعدَ الوضع وهي تفتح عينيها.. أضاءت الوجْهَ بابتسامة، ولملمتْ أطرافَ شعرها وهي تسألني:

- هل تحبّ روميسة الصغيرة؟

- لا توجد غير روميسة واحدة أحبّها.

مدّت يدَها نحو اللّفافة البيضاء، فقلت وأنا أساعدُها في حمْل طفلها:

- نصر..

تأمّلت الوجهَ الملائكي، وغمغمتُ: ولد!!

واستدركت: أنا لم أولَد منذ ثلاثين سنة.. بل ولدت الليلة.

الليلةُ كانت مُرعبة، كان كلّ خوفي أن أموت قبل أن أراك.

- أحبّك.

- مشاعري نحوك أكبر وأسمى من الحبّ.

طرقات خافتة بعدهما دخلت ماري.. خطتْ نحونا وهي تقدّم اعْتذارًا عن اقتحامِها المفاجئ، وبدأت الحديث مع روميسة وهي تساعد الطفلَ على الرّضاعة من صدر أمّه، كنت أنقلُ نظري بين وجْه الطفل.. ووجْه الأمريكية، وهي تمدّ طرفَ سبّابتها إلى شفاهٍ مثل نبتةِ ضوءٍ صغيرة، كان يغمرُها الحنان وهي تضمّ الطفل في رقّة طاغية، قالتْ لي روميسة بعدَ أسبوعيْن:

- ماري عوّضتني عن غياب أمّي..».

- ٩ -

ماذا يريدُ الشّعر منّي..؟

- ا -

حميدٌ الأمين

كان سؤالُ خليل مطران يتردّد في رأسي وقد أصابتني حيرته.. انْسالت مِن روحه إلى كياني.. وأنا أودّع مرحلةً هامّة من حياتي، وكأنني أتخلّص مِن بقايا مرضٍ عُضال؛ فالشّعرُ الذي أثقل حياتي ولوّثَ أفكاري، وقذفَ بي إلى السّجن.. كان تجارةً خاسرة. حتى جاءت جوديث آدم وقالت لي: «الشّعرُ أخطرُ الوسائل التي تمهّد المجتمعات لقبول الأفكار». كنتُ أتمدّد في التراس، ودخل «خضر» قائلًا:

- بيتُ الأمين ستحتلّه نساء أمريكا.

لم أنتبهِ لما يقول، فاسْتدرك: سيدة أمريكية تسأل عنكَ يا شاعر.

هتفتُ: جوديث..

نعم، إنّها هي، بملامحها الحادّة المتحفّظة، رغم أعماقِها التي اكْتشفتُ فيما بعدُ كمْ هي مَرحة. اصْطحبتُها إلى الأنتريه.

قالتْ وهي تتفحّصني بنظرة خاصّة:

- أنت حميد آخر غير الذي قابلته في السجن.

كنتُ حليقَ الذّقن نظيفَ الثياب، قلتُ مبتسماً: أكيد.

غمغمت: لعلّك وصلت إلى إجابة؟

ومالتْ نحوي، ولم ترفعْ عينيها عن وجهي، وكرّرت السؤال القديم:

- مَن أنت؟

- كنت شاعرًا.

- ولماذا هجرتَ الشّعر؟

- اكْتشفتُ أنه تجارةٌ خاسرة.

- تقول ذلك لأنّ حياتك فقدت المعنى.

- احتمال.

- تجارتُك الخاسرة هنا.. لها عندنا سوقٌ رائجة.

كانت تحاصرني بعينيْها عميقةِ الزّرقة. وفجأة اكْتشفتُ أنّني رجلٌ، ومعي امرأةٌ تدعوني منذُ نظرتها الأولى إلى..، الشّعْر..»

نحنُ بقايا مِن نفايات الأزمان، نحتاجُ نبيًّا يجمعنا، معجزةً تأتي تُدركنا، لكنّ نواميس الأكوان تمانع أن يحدُث شيءٌ مِن هذا.

فزمانُ المعجزة تولّى، ونبيٌّ آخرَ لن يأتي..

عبّر حميدُ الأمين تعبيرًا جيدًا عنْ كيمياء المشاعر في أوّل قصيدة نشرتْها الجريدةُ الأمريكية. كانت جوديث آدم قدْ رافقتْه في تلك الليلة إلى غرفتِها بالفندق، ومارستْ معه اللعبةَ بإتْقان، قالت له إنّها ستبدأ معه بروحِ الصداقة برنامجًا عمليًّا، وسيتعاقدُ مع الجريدة على تنفيذِه، وحدّدت كلامَها بجُملة صادمة...

- أمريكا خسرت الحرب.

ردّ عليها قائلًا:

تقْصدين بوش خسرَ الحرب.

- وما الفرق؟

- بوش اعتقدَ أنّه ربط مشاكلَ العالم كلها بالإرهاب، وسوف يحلّ مشاكلَه بالقوة. سيذهب بوش، وتعيدُ أمريكا ترتيبَ أوراقها من جديد.

قالتْ وهي تصبّ له كأسًا مثلّجًا:

- قبل سقوط بوش.. ودفع اليمين الذي يمثّله إلى حالةِ بيات، لا بدّ أنْ يهيَّأ الرأي العام لعملية ترتيب الأوراق.

– وما دوري؟

– قصائدُ ما بعد حداثية عن الإرهاب الأمريكي.

– كيف؟

– ستعرفُ الإجابة في حينها.

..، كرّرت السؤالَ على نفسي.

ماذا يريدُ الشّعرُ منّي؟

يلاحقني مثلَ ظلّي، وأطاردُه بسخرية لاذعة، أحسنت ظنّي والليالي، لم توافقْ حسنَ ظنّي، أرفع البيت الشعريّ في وجْه ما بقي مِن حياتي، وما يقبعُ في كيمياء الحزن والفرح مِن الرّفض لعلاقتي مع جوديث. كنتُ أتأهّب للسفر إلى أمريكا.. وذهبت إلى ما بقي مِن أسرتي لأودّعها.

روميساء قالت: مِن الشّرف أن تتزوّجها.

– الزواج فكرةٌ لم يحِنْ أوانُها.

وعاودت شرحَ أفكاري، وهي تلقمُ صدرَها إلى فمِ الطّفل، قلت: إنّ ما مرّ مِن حياتي تجربةٌ لا يجبُ أن تقاس إلّا من داخلها، والآن أنا أقفُ أمام لوحتي الخاصّة، لم أعدْ أقول.. نحن، بل أنا، أنا بقايا مِن نفايات الأزمان، ولن أنتظرَ معجزةً لتدركني، ومهْما جاء مِن أنبياء لن أتّبع رسالتها، فكلّ ما أريدُه حياة وتجربة جديدة.. لوحة أرى فيها الألوان والخطوط، وأحسّ ضرباتِ الفُرشاة حتى يكتملَ المعنى. في هذه اللحظة، تدخّل «خضر» وقال:

- المعنى واضح.

رددتُ ساخرًا: أفتني أرجوك.

والتفتّ نحو روميساء، وأخبرتُها أنّ ما بعد الحداثة تبرّر ما لم تبرّره الحداثة..»

– ٢ –

خضر بنُ ماءِ السّماء

«لم ألتفت لسخريتِه التي أفضتْ عنْ مُراوغة هشّة، وقلتُ له موجّهًا اتّهامًا صريحًا له بالعَمالة. اندفعتْ من فمِه ضحكةٌ بدتْ مثل صرخةِ ألمٍ، وهو يشير نحوي موبّخًا:

– ما بقي من ذيول مُنظّري «نظرية المؤامرة» إلّا هذا الجـ....

صرختْ روميسة في وجْه أخيها محذّرة:

– لا تنسَ أنّ خضر زوجي.

قلتُ في ثقة: دليل العمالة معي.

توقّف عنْ حشو ملابسه في حقيبة السفر، وقال في ثقة:

– التخلّفُ صفة مُتوارَثة في هذا الشرق، في كروموسومات هذه الحضارة البائدة. وواصلت هجومي:

– اتّصالك بالأمريكان بدأ قبل الغزو.

لمعةُ العين أكّدت الصدمةَ التي شملت كلّ جسده. ولكنْ سرعان ما انطفأتْ وتحوّلت إلى سخرية واستهانة..

تحدّيْته قائلًا:

– قبلَ الغزو بأيام، كنتُ في حديقة البيت وسطَ الظلام والصمت، وكلماتُك المُتقاطعة أثارت في نفسي الريبة.. أنا على يقين أنه أنت، وليس «نافذ» كما كنتُ أظنّ.

خرجت كلمةٌ متقّطعة من فمِه مثل بصقة «متخلّف»، واندفع نحوَ الباب وهو يصيح:

– لم يخربِ البلدَ إلّا أنتم. ابْقوا هنا حتى تنتهوا مِن دفن العراق، وفي النهاية لنْ تجدوا مَن يدفنَكم.

وصفقَ البابَ وراءَه، ورانَ الصمت. خطوتُ نحو زوجتي، وجلستُ أمامَها، ربتّ على كتفها في حنان، وقلت:

– نافذ شهيد.

شعرت بجسدِها ينتفض.. وهي تقترب منّي بنظرتها، بنفس البريق القديم.. والذي سرعانَ ما تحوّل إلى وميضٍ مبلّلٍ بالحنان الغامر، وقالتْ في رجاء:

– خضر، لم يعدْ لنا مكانٌ هنا.

وأنا ألوذُ بالصّمت، أخرجت الخطابَ الأخير، والذي أرسلته إلى إخوتي في مصر، وواصلت حديثها:

- عليهم أنْ يرسلوا شهادةَ ميلادك والبطاقةَ لتثبتَ أنّك مصري، ونسافر إلى مصر، بلدك..

وتهدّج صوتُها بالبكاء وهي تقول:

- لم أعدْ أحْتَمل العيشَ هنا، لم أعد.. لم أعدْ.

ضمَمْتها إلى صدري، وقلتُ لها:

- لقدْ أعددتُ كلّ شيء.

تخلّصت مِن بين ذراعي في رفق، وحدقتْ في عيني وهي تسألني:

- سنسافرُ إلى مصر؟

- أنتِ وطفلُنا نصر ستسبقاني إلى مصر.

تعلّقت بي، وقالت:

- لنْ نتركَك هنا.. لن نسافر إلّا وأنت مَعنا.

- سألحقُ بكما بعدَ أسبوع.. أو عشرة أيام على الأكثر.

وأخرجت جوازَ السفر وتذكرةً مُثبّت بها اسمُ نصر خضر بنِ ماءِ السماء، تأمّلت الأوراق، قرأت بياناتها..

تذكّرت فجأة.. ماري لم تعدْ حتى الآن. لقد ذهبتْ إلى السفارة الأمريكية منذ الصباح.

ـ ٣ ـ

ماري أرنولد

«، يا عذراءُ توسّلي من أجلي، رسمت شارةَ الصليب على صدري وأنا أجلسُ في مكتب سكرتير السفير. قدّم الرجلُ اعتذارَه عنْ تأخّر السيّد السفير، وتركني وعاود عمله. كان يقرأ الجرائدَ العالمية على شبكة المعلومات، وهو يردّد: آسف، ليس معي تفويض بذلك، السفيرُ غير موجود، احتمال. انتابني القلقُ فسألته إنْ كان في إمكاني مقابلة القائم بأعمال السفير.

أهملَ قراءةَ الجرائد، وسألني: ما المشكلة؟

قلت: أنا أمّ الملازم هنري جو أرنولد، عرفت أنّه قُتل.. وأريد أنْ أحملَ جثمانَه إلى بلده أمريكا.

استأذن الرجلُ، وأجرى مكالمةً تليفونيّة سريعة، ثمّ فتح أحدَ المواقع على الكمبيوتر.. وبعد دقائق، ظهر اسم هنري وصورته، وطلب منّي قراءة البيانات الواردة، وما إنْ وصلت إلى كلمةِ مفقود.. حتى تحرّك السّهمُ ورسم دائرةً حول الكلمة، وهو يغمغمُ:

- هنري مفقود.

قلتُ في ثقة: أنا على يقينٍ من أنّه قُتل!!

يقيني الذي استقرَ عند الليلة التي قُتل فيها ابني.. الليلة الأولى التي توقّف فيها الزمن حتّى انتبهتُ إلى الحياة التي لا تتوقّف.. والزمن الذي ينسالُ داخلي حتى وصل بي إلى الليلة الثانية.

الليلة التي ساعدتُ روميساء على الوضع. ومنذ النظرةِ الأولى على وجْه الطفل بدأتُ أستعيد ملامحي، ونبّهني «جو» وأنا أجري معه اتّصالًا عبْر شبكة «النت»، عندما سألني:

- حبيبتي، ماذا حدث؟

نبرةُ صوته أقْلقتني، فتساءلت:

- ماذا؟!

- وجهُك عادَ إلى حقيقته.. كنت أطاردُه مثل نجمةٍ شاردة. واليوم يغمرني بنوره..

وسألني في لهفة:

- متى تعودين؟

- سأكونُ في السفارة الأمريكية غدًا.

- وأنا في انتظارك.

قال سكرتيرُ السفير: قد يكون حيًّا!!

– صدّقني.. ابني قُتل، وكلُّ ما أريدُه منكم جثتَه.

– سيدتي، كلمة «مفقود» تعني أنه لا يوجد جثة.

غمغمتُ في حزن: الجلّاد يرفض دائماً تسليم جثة الضحية!!

شخَصَ السكرتيرُ بنظرةٍ عميقة نحوي، وقال: اذهبي!!

يوميّات ابني التي تناولتها.. وقضيتُ الليل في قراءتها.. الليل الذي غمرني بحزنه العميق. كلّ التفاصيل التي حاصرتني.. وعلى أرض الغرفة كنت أرى الجثثَ مُلقاة في كلّ مكان، والمشاهد البشعة للأطفال الممزّقين، وصورة روفيدة وسطَ بالونة النار تمتدّ يدُها نحوي.. وأنا أشعرُ بالعجز التامّ والاستلاب. فتحتُ فمي فعجزت عنِ الصراخ، وواصلتُ القراءةَ في إصرار، وأنا أقاومُ وسط لحظةٍ فاصلة. الانسحاق تحتَ وطأة الانهيارِ العصبي الذي يتأهّب للفتْكِ بي.

فوْرَ خروجي من السفارة، طلبتُ رقم «جو»، وأخبرتُه بتحديد موعدٍ مع صديقِه جون بروست.. فسوف أتقدّم للشهادة أمامَ لجنة التحقيق المتعلّقة بالحربِ على الإرهاب، ومعي يوميّات هنري، سألني:

– متى ستعودين؟

– أنا أتأهّب للسفر الآن..»

– ٤ –

روميساءُ الأمين

«لحظاتُ الوداع التي يرتجفُ منها القلبُ.. وخضرُ يصطحبني إلى المطار.. ونصري الوليدُ أضمّه إلى صدري. كانت دموعي لا تتوقّف وأنا أنظرُ نحو الشارع الذي نخترقُه.. أستديرُ إلى بيت الأمين فتنسالُ كلّ الآلام إلى قلبي.. فها أنا أودّع عمري كلَّه فيه، أودّع أيامي التي عبقتْ زواياه بالأحلامِ الناعمة والذّكريات الحزينة، ورائحةَ هوائه، وأشياءه، وصدى كلّ ما قلناه وما لمْ نقلْهُ.. كنتُ أودّع عمري كلّه في هذه اللحظة. وصلنا إلى النهر، فشهقتُ باكية، وردَّ طفلي على بكائي.. فتوقّف «خضر» ولامَني في رفق: روميسة، الولدُ ليس له ذنبٌ في كلّ ما تفعلينَه في نفسِك، في مصر سنكون بخير...، وواصل السيرَ بالسيارة.

في الليلةِ السابقة، قال لي وأنا أجهّز أشياءَ السّفر:

– سأسافرُ معكما.

فضمَمْته إلى صدري، وأجهشتُ بالبكاء.

قلتُ له: منذُ شعوري بنصر ينمو مثل الثمرةِ في بطني.. وازداد تعلّقي بك، كلّ ما يؤلمني نظرةُ الحزن التي تحتويني بها.

حرّك أصبعَه مع أطراف شعري المعقوف وقال:

- سأسافر معكما.

ضمَمْتُه إلى صدري، وأجهشت بالبكاء..»

في هذه الليلة، رجولةُ زوجي التي بدتْ مُكتملة.. احتواني بها، ورميتُ العالمَ وحروبه المجنونةَ وراءَ ظهري.. وتعلّقتُ بجسده.

حائطُ الأمان الذي يقيني شرورَ الدنيا والزمن الغادر..

تعلّقت به، ووهَجُ جسده يشعّ بنورِ الرجولة، ينيرُ لي النّفق الذي ألجُ إليه.. وأنا أشعرُ بتدفّق اللذّة.

كانت ذاتي العميقة تقترب.. أراها على صهوةِ جوادٍ أصيل، ووجه فارسي المصقول.. يقتربُ، ويحتويني..

- ٥ -

خضر بنّ ماءِ السّماء

«وجْهُ طفلِنا بدا مثلَ نبتةٍ صغيرة.. وأنا أتأمّله بعينيْن مشحونتيْن بالحنان، كانت تجتاحني أحاسيسُ لم ترقْ لها روحي مِن قبْل، وللحظةٍ بدأتْ نافورةُ الكلام.. انطلقت الحروفُ مثل زخّاتٍ سرعانَ ما اكْتملت.. وهطلَ المطر، قلتُ لزوجتي:

- عندما تستقرّ أحوالُك أكملي رسالتك الماجستير، وأنا سأساعدُك.

مدّت أصابعها، ومسحتْ قطراتِ العرق عنْ جبيني، وتساءلت:

- كيف؟! أقصدُ كيف ستساعدني؟

تمدّدت، والكلام يتّسع في صدري، قلت لها: تحدّثي عنْ سلطة القتل.. والبداية هنا مِن بيت الأمين، لا أقصدُ سعيدَ الأمين.. ما أقصدُه هو محمد الأمين الذي ولّاه أبوه «هارون الرشيد» الخلافةَ ليقتل أخاه المأمون. وأنا أتحدّث كانت صورةُ صدام حسين بعدما قُبض عليه في مَخْبئه تُعرَض على الشاشة.. قاطعتني بكلمةٍ مثلَ الطّعنة: إهانة...

وواصلت بصوتٍ مَبْحوح:

– لم يقنعني صدّام في يوم من الأيام، ولكنّ ما يحدث له الآنَ إهانةٌ لنا جميعًا.

أغلقت التليفزيون وهي تقول: مَهزلة.

.........، لحقتْ بنا ماري في المطار، ولم تكفّ عن الاتّصال بزوجها، وأنا أفكّر في اقتحام المنطقة الخضراء. كانت زوجتي تجلس وقد خيّم عليها صمتٌ مُميت.. حاولتُ أن أهوّن عليها فلمْ تنتبِه، كنت ألمحُ دموعَها القديمة وهي تستقرّ هناك في نفقٍ بعيد، تناولتُ أصابعَها لأهبَها الدفء والاطْمئنان.

قلتُ لها: الفصلُ الثاني من الرسالة يجب أن يكون بعنوان «الجريمة والعقاب» والفصل الثالث، والرابع.. لم تلتفتْ روميسة، بل ظلّت شاخصةً في الفراغ. وفجأة، أشارتْ إلى صحيفة معلّقة، وقالت وهي تزمّ شفتيْها وقد غلبَها البكاء: انظرْ. نظرتُ إلى الصحيفة، وكان العنوانُ أحمرَ بلوْن الدّم.. «مقْتل العالِم العراقي أيوب الظاهر على يدِ مَجْهولين أمس في مدينة بعقوبة».. كان الجسد مفكّكًا تمامًا.. والرأسُ مشطورًا إلى نصفيْن، والساق اليسرى مبتورةً ومُلقاة إلى جواره.. استدركت وهي تُخْرِج منديلًا لتمسح دموعها:

- كان أستاذي..

وأنا أضمّها إلى صدري.. واصلت:

- قتلوا الأستاذ يا خضر.

وأنا أفكّر في اقتحام المنطقة الخضراء لأخرجَ مِن هذا العالم الذي تحوّل إلى دائرةٍ ضيّقة خانقة..

كان لا بدّ أن أقومَ بهذا الاقتحام قبْل السفر، لا قبل الهروبِ إلى مصر، بعد ذلك. سأسافرُ إلى آخر بقعةٍ في هذا العالم.. في هذا الكون.. سأجابِهُ شياطين الإنس.. هؤلاء الرجال المتعجرفين.. وهُم يبرّرون جرائمَهم بالمزيد مِن القتْل.

التفتُّ نحْو روميسة.. تأمّلتها للحظةٍ قبل أن تنظرَ وتقول لي:

- خضر..

أردتُ أنْ أقاطعَها وأقول لها.. لن أسافرَ معكما.

وقبلَ أن أفتح فمي قالت:

- خضر، لن أسافر.

غمغمتُ متسائلًا:

- ماذا.....؟!!

قالتْ وهي تتخلّص من بقايا دموعها:

- لن نتركَ العراق، بلدَنا..

انتابتني حالةٌ مِن الهيستريا، اختلطَ فيها الضحك بالبكاء.. كانت حالتي الذهنيّة قدْ أربكتها صدمةٌ مِن فوضى المشاعر الحادّة، عانقتُ زوجتي وابني، وقبَّلتُهما..

......

– ٦ –

روميساءُ الأمين

«وزوجي «خضر» يتأهّب لسفرٍ قد يطول.. كنت أردُّ على رسالةٍ من روح.. كانت تبشّرني في فرح؛ فقدْ وافقت جامعةُ «متشجن» على منحةٍ دراسية.. وعليَّ في غضون شهرٍ أنْ أكونَ في نيويورك..

قلتُ لروح: لن أتركَ العراق.

– ...،

– ....،

– .....

كان الفجرُ ناعماً..

ضمّ المدينةَ في هدوء لم تعتدْهُ منذُ شهور طويلة..

ورافقتُ زوجي إلى الشاحنة، وتركتُه يحملُ الطفل..

وقمتُ أنا بمسحِ الزّجاج وجوانبِ السيارة.. قال لي وهو يداعبُ فمَ طفلِنا بسبّابته:

- المنحةُ الدراسيّة فرصةٌ قدْ لا تُعوَّض.

- دقيقةٌ واحدة بعيدًا عن العراق، لا تُعوّض..

- فكّري جيدًا.

- سأجدُ وسيلةً لإكمال الرسالة.

أنهيتُ عملي، وهو يعطيني الطفلَ.. مالَ نحْوي، وقبّلني.. وأنا أنظرُ إلى عينيْه وقد غلّفهما الدفء، وذهبتْ نظرةُ الحزن التي كانت تؤلمني. صعدَ واتّخذ مكانَه وراء عجلة القيادة..

ولوّح لي بكفّه، وبدأ السيرَ.. والاطمئنانُ يحتويني لأوّل مرّة.

وواصلت النظرَ إلى الشاحنة وهي تبتعدُ نحو ضوءٍ ينسابُ مثلَ غلالةٍ مِن حرير..

و«خضر» يواصل السيرَ والابتعاد..

ازدادت كثافةُ الضوء حوْل الشاحنةِ حتى بدتْ مِن بعيدٍ مثلَ نقطة بيضاء لامعة..»

عوني عبد الصّادق

الجمعة ٣ نوفمبر ٢٠٠٦

ميت القصرى/ ت ٠١١٨٤٩١٩٣٧